رَجُلٌ مِن زَمن جنين

الشهيد الجنرال

محمود طوالبة

شبكة حوار بوابة الأقصى

www.alaqsagate.org

مقدمة

لن تكون ملحمة جنين محطة عابرة، فهي في مقياس الفلسطيني كتاب تجربة سُطرت فيه معركة الكرامة على ضفاف نهر الأردن بكل ما حملت من دلالات انتصار وحدةِ السلاح الفلسطيني في مواجهة الغزو الصهيوني. وسُطرت فيه يعبد والقسامَ بكل ما فيها من اختزال لكل معاني الصراع الكبير، إنه جهاد نصر أو استشهاد.

لن تكون محطة عابرة، لأنها جسدت قمة الملاحم الجهادية في تاريخ فلسطين المعاصر وذروة الروح الفلسطينية المؤمنة الصابرة المجاهدة، وكثّفت كل عناصر التجربة لتكون درساً عظيماً للأجيال، درساً متكاملاً، عناوينه: وحدة الشعب الفلسطيني، جهاد حتى آخر رصاصة، استشهاد الواقفين غير الراكعين، الإيثار حتى المعجزة ولذلك تظل جنين ملاصقة للذاكرة وللتصور والعبرة.

هذا المخيم لن يكون في مهب الريح. صحيح أن حجارته نُسفت، وأبناءه شردوا مرة بعد مرة، ولكن في ملحمته حفر في جذور الأرض اسمه وفعله، ورسم في فضائه آية من آيات انتصار الدم على السيف.

كان المخيم، وكان فيه محمود طوالبة، وكانت فيه سرايا القدس، سرايا الجهاد الإسلامي. كانوا جميعاً وما يزالون، بالدماء كتبوا وصاياهم، وبالجهاد سطروا سجلاتهم لتكون كتباً يقرؤها الصغار قبل الكبار، يتعلمون منها أن المستحيل المستحيل، أن يفكر الشعب الفلسطيني بالتنازل عن شبر واحد من أرض فلسطين كل فلسطين.

كان الخيار أن نموت واقفين ولا نركع، كان الموت ـ استشهاداً ـ خيار الملتصقين بعقيدتهم، المؤمنين بحقوقهم، وكان الخيار... لن يمروا إلا على أجسادنا.. فكانت ملحمة السرايا، ملحمة طوالبة والماسكين على قبضات سلاحهم كالقابض على جمر من أتون المرحلة.

هكذا نكتب حين نؤرخ لحياتنا وحاضرنا ومستقبلنا. نكتب بقلمنا وليس بأقلام المرجفين الساقطين على موائد السادة المتفرجين، نكتب بدموع أم فلسطينية ما أرعبها استشهاد أبنائها، ولا أخافها انهيار جدران بيتها. وإنما أبكاها عجبها من أمة كانت تتفرج على سكين الغاصبين وهي تذبح وتجعل الدماء أنهاراً.

نكتب بدماء أطفال قضوا وهم يحملون الحجر بيد وكسرة خبز في اليد الأخرى، نكتب بلسان هؤلاء الذين صنعوا الملحمة بلسان طوالبة وبدير وإخوة لهم ذاقوا حلاوة الجهاد فما تركوها، فهي في أرواحهم ونفوسهم وأفئدتهم قبل أن تكون في أفواههم وأجسادهم.

فأقل الوفاء الوفاء لحركة الجهاد الإسلامي، لسرايا القدس، لمحمود طوالبة،

لرياض بدير ولكل قطرة دم شاركت في صنع الملحمة، أقل الوفاء أن نستمد من تضحياتهم مداد الكتابة والتاريخ.. فلنكتب الحقيقة، وليذهب ما يلفقون إلى هامش التاريخ لنكتب لأنه حان الوقت كي يكون التاريخ تاريخ المجاهدين والشهداء لا تاريخ السلاطين والأدعياء.

كلمات تختصر الحكاية!

«...كان يوم ميلاده يوماً مميزاً؛ وطول عمره كان وجهه سعيداً وهنياً؛ حتى أنه كان يساعدني في أعمال البيت وذلك عندما بلغ سن ١٢ عاماً..»...

بهذه الكلمات القصيرة اختصرت والدة محمود طوالبة كل الحكاية!!.. فوالدته الحاجة تفاحه أحمد محمد طوالبه؛ والبالغة من العمر خمسين عاما كانت طوال الوقت تربط بين محمود وبين كل ما هو لطيف، و«هني»، ومميز... فقد كان محمود مميزا في ميلاده، مميزا في حياته... ومميزا كذلك في طريقة استشهاده!... ولعل هذا يكون كافيا لاختصار الحكاية... حكاية رجل من زمن جنين... حكاية محمود طوالبة!...

..فهذا المقاوم التقي يكاد يتحول إلى «أسطورة»، لكنها أسطورة حقيقية على كل حال، يشهد على ذلك كل من عرفه!!.. وقد ارتقى محمود تدريجياً في سلم النضال؛ إلى أن أتقن مهارات حرب العصابات وبرع في فنونها. وفي لقاءات مع والدته ووالده وأشقائه وشقيقاته وأصدقائه، ترتسم لمحمود صورة جميلة هي صورة الشاب الملتزم؛ صاحب الأخلاق الفاضلة والعزيمة التي لا تهدأ ولا تلين!.

فمع اندلاع انتفاضة الأقصى المباركة في أيلول من العام ٢٠٠٠ بدأ الشاب اليافع «محمود» يتجه باهتمامه للعمل السياسي والنضالي، وقد كان همه دائما أن تتوفر له أسباب المقاومة.. حيث عرض المباشرة بتنفيذ هجمات ضد الاحتلال.

انضم طوالبه إلى حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين؛ وخلال بضعة شهور كان هذا الشاب الذي اضطر لترك دراسته في مراحلها المتوسطة، قد أصبح القائد العسكري لحركة الجهاد في مخيم جنين... حيث بدأت، من هناك، رحلته مع المقاومة بأسلحتها البتّارة؛ المتمثلة في الهجمات المسلحة؛ والكمائن والعمليات الاستشهادية، والتي اعتبرتها (إسرائيل) أسوأ ما تواجهه في المناطق الفلسطينية على الإطلاق. وقد تحمّل «محمود» شخصيا شرف المسؤولية عن مقتل عشرات الإسرائيليين المستوطنين..

وصار الطوالبه بنداً من بنود المحادثات الأمنية بين السلطة الفلسطينية و(إسرائيل) التي مارست ضغوطا حتى قامت السلطة باعتقاله في أواخر العام الماضي ٢٠٠١، مما أثار ثلاثة أيام من التظاهرات الشعبية الفلسطينية الغاضبة أمام أحد المراكز الأمنية بالقرب من جنين حيث كان معتقلاً. وقد نقل لاحقا إلى سجن في نابلس حيث نجح

في الفرار؛ بعد أن استهدفت المقاتلات الجوية الإسرائيلية المعتقل بهدف القضاء على من فيه. وكان محمود قد أرسل شقيقه مراد إلى حيفا في تموز الماضي ٢٠٠١ لتنفيذ عملية استشهادية لكنه اعتقل قبل وصوله إلى هدفه؛ حيث يواجه عقوبة بالسجن مدى الحياة. وفي مقابلة مع الطوالبه، قال متحدثا عن شقيقه مراد: «نظرت في عينيه، وشعرت بالحزن. لكنني كقائد يجب أن اتخذ قرارات صعبة. لا يمكنني أن أجعل الناس يقولون إنني أرسل الناس إلى موتهم ولا أرسل شقيقي»!!.

من هنا فلم يكن محمود طوالبه شخصاً عادياً، إذ تميز بالإحساس العميق والدافئ تجاه شعبه وأمته!... ولدى استشهاده كان الطوالبه ضمن أكثر من تطلب إسرائيل رؤوسهم، حيث استشهد خلال الدفاع البطولي والأسطوري الذي أبداه مخيم جنين ضد القوات الإسرائيلية الغازية؛ وقد تحول المخيم، بفعل الهمجية الإسرائيلية، إلى أنقاض وركام!...

وكان الطوالبه قد أمضى زهرة حياته القصيرة والمثمرة في تبنٍ مستمر ودفاع دائم عن المعاني الجميلة في حياة هذا الشعب المناضل والمجاهِد، وحول واقعة استشهاده يقول شقيقه محمد: «لقد استشهد، لأن هذا ما كان يريده، وأعلم أنه لم يكن بإمكانه أن يتراجع»!!.

وعلى الرغم من صغر سنه لدى استشهاده إلا أن محمود الطوالبه كان قد تحوّل (ببركة دماء الشهداء) إلى بطل شعبي يكاد يرتقي إلى حد الأسطورة، ليس لأهالي مخيم جنين وحدهم، بل للأمتين العربية والإسلامية بأجمعهما.. وكانت المرة الأخيرة التي شوهد فيها محمود من قبل والدته وشقيقه الأكبر محمد في السابع من نيسان ٢٠٠٢، أي في اليوم الخامس من معركة المخيم ضد القوات الغازية. وقد شوهد محمود مرتدياً زيه القتالي؛ معتمرا خوذة عسكرية، متسلّحا ببندقية من طراز «أم ١٦»، ويزنّر جسمه بحزام ناسف، حيث اعتزم الشهيد تفجير نفسه، مفضلا ذلك على الوقوع في الأسر.

وكان الشهيد «محمود» قد ترك لدى استشهاده زوجة وطفلة عمرها ثلاث سنوات كان قد أسماها «دعاء»، وترك كذلك طفلاً رضيعاً هو «عبد اللّه»، كان قد ولد قبل استشهاده بأقل من شهرين.

...وككل من استشهدوا... ومثل كل الذين ذهبوا على هذا الدرب... لم يسأل محمود نفسه حول مصير أحبائه الذين سيتركهم خلفه... ذلك أن السؤال في هذه الحالة كان سيمنعه من القيام بالواجب... لقد أودعهم يد الرحمن؛ ونظر إليهم نظرة طويلة... لكنه التفت عنهم... ثم مضى!...

كيف أصفه؟!.. لقد كان إنسانا!..

(هكذا قالت عنه أمه) !!

وفي شهادة مؤثرة، تحاول أمه، أقرب المقربين إليه روحا ونفسا... تحاول أن تستجمع شتات أفكارها، ومتناثر ذاكرتها... متسائلة... كيف أصفه؟!... كيف أصفه؟!... ببساطة: لقد كان ابني إنساناً...

وكأنها تحاول أن توضح سر ذلك الاختصار، فأي الأشياء أجمل من أن يكون المرء إنسانا؟!... لذا فقد حاولت أن تبسط لنا بعضا مما ساهم في تشكيل تلك الروح الإنسانية الشفافة وذلك حين قالت:

«ولدت لأسرة بسيطة تعمل في الفلاحة، تزوجت وكان عمري يومها تسعة عشر عاما؛ حيث أقمنا معا في بيت متواضع بمخيم جنين.. وقد عمل زوجي حينها في بيع الخضار والفواكه.. وتنقل من مهنة إلى أخرى محاولا أن يخرجنا من ظروف التعب والشقاء التي كنا نعايشها؛ تعبنا.. قاسينا.. لكننا كافحنا ولم نستسلم لأوضاعنا الصعبة؛ وقد أعطانا اللّه عز وجل هدية غالية أشعرتنا بأنه معنا، ومثبّتنا.. إذ رزقنا بميسون.. أولى أبنائنا، وقد تلتها ظريفة؛ ثم محمد ومحمود.. الذي ولد بتاريخ ١٩/٣/١٩٧٩.

وتغمض والدة محمود عينيها في محاولة لاسترجاع بعض من الماضي الجميل... يوم كان محمود إلى جوارها يؤنسها بطلعته البهية الوضيئة...

...لقد كان الوحيد بين أشقائه الذي يبادر إلى مساعدتها في قضاء الكثير من الأمور... وقد وصلت رقته وتلطفه إلى حدّ مساعدتها في بعض أشغال المنزل... «كان إنسانا حقيقيا»... تقول والدته!..

وتضيف: «كنت أخرج أحيانا إلى السوق؛ وعندما أعود كان محمود يفاجئني بواحدة من مفاجآته الجميلة!!... ففي مرة كنت أجده وقد غسل الغسيل ونشره على الحبال ليجف!!... لقد كان بارعاً... وقد برع في ذلك إلى حد تفوق معه على شقيقاته... أذكره اليوم حين كان يجلس إلى جواري وأنا أعد الطعام... كنت ذات مرة أطبخ «كوسا» فجلس إلى جواري يقلدني ويضحكني!... كان دائم المساعدة لي في المطبخ إلى حدّ أنه تعلم فرم الملوخية وصار أمهر مني في إعدادها... وقد استمر، رحمه اللّه، على هذا في مساعدتي كلما أتاحت له مشاغله ذلك، وقد كان يعود من عمله في بعض الأوقات فلا يرتاح حتى يساعدني...».

لقد كانت علاقة محمود بأسرته مثالا ونموذجا للسيرة الحسنة، إما أن علاقته بأمه ،بالذات، فقد كانت مثالا لعلاقات الإنسان التقي الذي يخاف ربه، حيث كان محمود يوصي من حوله بأمه خيرا، مؤكدا علي محبتها واحترامها... وكان محمود دائم التذكير لزوجته بهذا الأمر، فكان يقول لها: «هذه أمي التي ربتني بدموع عينيها،

لقد تعبت كثيرا إلى أن رأتني شابا... أتمنى أن أرد لها بعضا من فضلها...»...
كما أحب محمود شقيقه محمد كثيرا، حيث كان دائم الترديد: «...محمد ضحى بحياته وترك المدرسة صغيرا لأجلنا أنا وأشقائي.. لقد تعب وعمل من أجلنا..»..
لقد كان محمود مخلصا لا ينسى من أحسن إليه، وكان محبا ومقدرا للجميع.

كان محبوبا!

تلقى محمود تعليمه في مدرسة وكالة الغوث، وقد كانت درجاته جيدة دائما، وقد حظي إلى جانب ذلك بحب معلميه جميعا، لكونه نشيطا مجتهدا.. ولم تكن حياة محمود سهلة، إذ عاش ذات الظروف الصعبة التي كابدها أهله في المخيم، فأثر ذلك كله على دراسته وتعليمه...
ولعل المعاناة الشخصية التي واجهها محمود في حياته نتيجة للأوضاع الاقتصادية البائسة هو ما ساعده على بلورة شخصيته النبيلة، التي تميزت بالإحساس المرهف تجاه معاناة الآخرين، وقد كانت كل تحليلاته لأسباب تلك المعاناة تؤدي به دائما إلى اتجاه واحد وحيد... الاحتلال!... لذا فما كاد محمود يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى تفتحت عيناه على أساليب المقاومة المتداولة بين أيدي الشباب في مثل سنّه... فعرف الحجر، وعرف «المتراس» وانتهى به الأمر وهو في مثل تلك السنّ المبكرة إلى تحويل المواسير إلى أكواع متفجرة!!...
تقول أمه: «... أبلغني رفاقه بأن محمود لا يذهب إلى المدرسة، وبأنه ينقطع عنها في كثير من الأوقات... لقد كان كل وقته مخصصا لذلك النشاط الذي لم نعرف به في ذلك الوقت، حيث كان متكتما إلى أقصى درجات التكتم...». وعن لطائفه في تلك الفترة تروي والدته واقعة أصبحت فيما بعد واحدة من نوادره!... حيث قام في إحدى المرات بتفكيك بعض مواسير البيت ليصنع منها سلاحا...»!!.
وبسبب عوامل كثيرة أهمها توجهه إلى العمل الجهادي فقد اضطر محمود إلى ترك المدرسة؛ إذ تركها ولمّا يكمل دراسة المرحلة الإعدادية، ومن يومها تحولت حياته إلى حلقات متسلسلة يشد بعضها بعضا... فمن يبحث عنه يمكنه أن يجده إما في المسجد، أو في حلقات الذكر؛ أو في أحد الأماكن المستورة يمارس فيها هوايته في إعداد العبوات الناسفة!!...
أما عن علاقته بأهل المخيم فقد كان مثلها المميز علاقته برواد المسجد ذاته، حيث كانت علاقته بهم جميعا على أكمل ما يمكن أن تكون، وقد حظي محمود بحب وتقدير وثقه جميع المصلين بمن فيهم الأئمة والوعاظ.

محمود يبحث عن عمل...

كان محمود رجلا... بمعنى الكلمة، لذا فقد عرف في قرارة نفسه أن الحياة ومتطلباتها تقتضي الجمع بين واجبي الجهاد والعمل، لذا فقد كان سعيه دؤوبا لمساعدة أهله لعله يجنبهم بعضا من الألم... ولأجل تحقيق ذلك فقد بدأ محمود حياته العملية في مدينة حيفا، حيث عمل في ورشة للبناء...

وعن أول يوم عمل تتحدث والدته وعيناها تتألقان ببريق الذكرى: «...لن أنسى ذلك اليوم... يوم أن عاد إلى البيت سعيدا لحصوله على أول راتب من عرق جبينه... وقد أعطاني كل المبلغ وقال لي: «ابشري يا أمي فبإذن اللّه سأخلصك من حالة الضيق والضغط والألم»...

أما عن العمل الذي انتظم فيه محمود «القصارة».. فسرعان ما أتقنه وصار «معلما» فيه، وصار يعمل لديه عدد من الشبان، فذاع صيته في جنين والناصرة وحيفا والقدس وأصبح اسمه مشهورا في هذه المهنة. إلا أن عمله وإخلاصه لعائلته الصغيرة لم يكن ليشغله عن تأدية واجبه ورسالته تجاه عائلته الكبيرة... مخيمه، وشعبه وأمته... فواصل محمود مسيرة العطاء في الانتفاضة الأولى، مما عرضه للاعتقال والسجن في سجون العدو الصهيوني مرتين، ولفترات مختلفة، وكان في كل مرة يمضي فترات طويلة من مدة احتجازه في أقبية التحقيق، إلا أن ذلك لم يفتّ في عضده؛ ولم يقلل من عزيمته، بل زاده إصرارا على إصراره، وقوة على قوته، وإيمانا بالحق الذي يتمسك به، وبأن هذا الحق يستحق كل تضحية ويهون لأجله كل ألم!!...

محمود... الشاب التقي الورع

كان محمود في صغره طفلا مؤدبا، ولما كبر صار شاباً عاقلا... فلم يكن غريبا والحالة هذه أن يكون قلبه متعلقاً بكل ما هو جاد في الحياة، إذ علم محمود أن له في الحياة رسالة فاعتزم أن يؤديها على أكمل وجه...

وكما كان محمود ملتزما تجاه بيته وأسرته، فقد نشأ ملتزما بالعبادات، مواظبا على الطاعات... فكان قلبه معلقا بالمساجد، كونه تشرب حب اللّه، وتشبع بالرغبة في نصرة دينه منذ كان صغيرا، فكان كما قال رسولنا الكريم صلى اللّه عليه وسلم (سبعة يظلهم اللّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله... (منهم) شاب نشأ في طاعة اللّه)... لذا فلم يكن غريبا، والحالة هذه، أن تتغير كل المعايير والقيم في حياة هذا الشاب وهو يدخل إلى رحاب الإسلام من باب القربات إلى اللّه... تقول والدته: «التزم محمود، منذ صغره، بالصلاة لكن في سن ١٦ تغيرت حياته فازداد إقبالا على قراءة القرآن الكريم والكتب الدينية..»...

أما شقيقته ميسون فتقول عن تلك المرحلة من حياة محمود: «...تفتح قلبه للإيمان في مقتبل العمر، ورغم عمله داخل فلسطين المحتلة، إلا أنه كان دائم الالتزام بالصلاة لا ينقطع عنها لأي سبب كان، وكان حريصا كذلك على تلاوة القران الكريم وشراء أشرطة الكاسيت ذات الصبغة الدينية، فكان يقضي وقته بعد العمل في الاستماع إليها؛ وقد حفظ بعضها عن ظهر قلب... وقد كان يقوم بإهدائها إلي أصدقائه؛ خاصة أولئك الذين كانوا يعملون معه في الداخل... وقد كان دائم الحثّ لهم على الالتزام بالدين...».. وقد أثرت تلك الفترة في التكوين النفسي لمحمود، حيث وجد نفسه في الدعوة إلى اللّه والعمل لأجله، إلى الدرجة التي دفعته فيما بعد إلى ترك عمله داخل فلسطين المحتلة؛ على الرغم من تحسن دخله آنذاك، مفضلا عليه بسطة متواضعة افتتحها في مدينه جنين كان من خلالها يبيع الأشرطة...

فيما بعد انتقل محمود لتنظيم جماعات شبابية للدعوة للإسلام، فكان أن شكّل أول مجموعه منها؛ وذلك في مسجد المخيم، حيث بدأت تلك الأشكال من العمل الدعوي تنتقل من منطقة لأخرى، وقد شكلت تلك الأطر الدعوية نوعا من التكريس لجهود محمود في العمل لأجل الفكرة التي حملها وكان مستقبلها يؤرقه، لذا؛ وعلى الرغم من كل الظروف الصعبة التي تمثلت في عدم توفر مصدر رزق له ولأسرته، فقد بقي حب اللّه والإيمان به دافعه الأول ومحركه القوي... مما جعله زاهدا في الدنيا راغبا طامعا فيما عند ربه... كما كان يردد دوما.

ومن خلال عمله البسيط الذي وفرته له بسطة الأشرطة التي افتتحها في شارع الحسبة قرب لجنة أموال الزكاة في جنين استطاع محمود أن يشبع نهمه إلى عمل الخيرات، بالإضافة إلى ما كانت توفره له من دخل يساعده على القيام بواجبات الحياة... فكان يوفر من خلال تلك البسطة الكتب؛ والمجلات؛ والموسوعات، والأشرطة الدينية... مما جعلها نقطة مضيئة تنشر الهدي والحب للإسلام، ومن المفارقات أن محمود الشاب الفقير لم يكن ليتردد في توزيع بعض تلك الكتب والأشرطة على الطلاب، الفقراء منهم بشكل خاص، والذين يعانون ظروفا صعبة، كان يوزعها عليهم بصورة مجانية...

وما أشبه محمود بالمزارع يلقي الحبّ في الأرض فلا يدري من يأكل منه... طير كان أو بشر... فآتت دعوته أكلها، وحققت رسالته كثيرا من أهدافها... حيث اهتدى كثير من الأشخاص إلى قيم الخير والدين بفضل الجهود الخيرة والتضحيات الغالية التي قدمها محمود...

شهادة الطالبة م.ن من جنين

(اهتديت للإسلام بفضل اللّه ثم بفضل الشهيد محمود، رحمة اللّه عليه، فقد توجهت إليه في أحد الأيام لشراء شريط كاسيت غنائي فأبلغني محمود بعدم وجود ذلك الشريط لديه، ونصحني يومها بالاستماع إلى شريط آخر أهداني إياه...)...

وتضيف: «..عندما استمعت إلى الشريط حدث لي شيء ما، فقد انتابني شعور لا أستطيع أن أصفه، فكأن كل شيء في حياتي قد تغير فجأة... وبدأت أرى الدنيا بعيون جديدة... عرفت من خلالها رسالتي وهدفي في الحياة.. ولما عدت لأشكره وعدني بالاستمرار في تزويدي بالكتب والأشرطة الدينية..»...

وكما يتناقل طلاب جنين فقد كان محمود يوزع من الأشرطة الدينية والكتب والهدايا بصورة مجانية أكثر مما يبيع!! ومع ذلك فقد كان دائما منشرح الصدر، مسرورا بما يسره اللّه له من خدمة لأبناء دينه وأهله ومجتمعه.. وكان يردد دائما: «..لا توجد خسارة فيما أقوم به، لأن الدنيا زائلة، والأموال تأتي وتذهب، أما عمل الخير فباقٍ؛ والدعوة إلى اللّه وهداية الناس لها أجر كبير عند اللّه»...

وحول ذكرياتهم التي تركها لهم محمود قبل أن يمضي شهيدا يتحدث رواد المساجد وأئمتها في جنين والمخيم عن الهدايا القيمة التي كان محمود يهديها للمساجد، فقد كان يزودهم بالأشرطة الإسلامية والكتب القيمة، بالإضافة إلى تواصله مع حلقات الذكر والتوعية..

وحول تمسكه بعمله الذي أحبه تقول «أم عبد اللّه» زوجة الشهيد محمود: «عندما أصبح مطلوبا وملاحقا من قبل أجهزة الأمن الصهيونية رفض بيع أو إغلاق البسطة وسلمها لشخص آخر لمواصلة رسالته؛ وطلب منه الحفاظ عليها؛ والالتزام بالدين الإسلامي؛ والابتعاد عن كل ما يغضب اللّه، ومنذ تأسيسها وحتى اليوم لم يأخذ منه قطعة نقود واحدة وترك له حرية التصرف والاستفادة الكاملة منها؛ وسنبقى نحن على نفس النهج؛ حيث سنطلب من الشاب الاستمرار في افتتاح البسطة ورعايتها وفاء لذكرى محمود.. المهم أن يصون العهد والوصية؛ وأن يبقى ذلك المكان الذي أحبه محمود مركزا لنشر الإسلام وروح الجهاد».

كان زاهدا كريما... هذا هو محمود!!

كأي مناضل حقيقي التزم محمود بحياة تقشف وزهد، لعلمه أن النعم لا تدوم، خصوصا إذا ما شابت تلك الحياة ألوان من المطاردة والمتابعة الصهيونية بغرض قتله وتصفيته، لذا فقد تميزت حياة محمود بالبساطة، كما تقول زوجته، قلبه كان عامرا بالإيمان فلم يتكبر على أحد... وكان بابه مفتوحا للجميع كما قلبه وعقله دوما... وكان متقشفا، حيث كانت حبة زيتون تكفيه، وكان في بعض الأحيان يوصيني بشراء بعض اللحم وتوزيعه على الفقراء، أما هو فقد كان يرفض تناولها..

وتواصل زوجته حديثها عن زهده في الحياة: «...طلبت منه ذات يوم شراء بيت خاص لنا، فغضب وقال لي إذا قدّر لي أن أعيش في هذه الدنيا فقيرا، فليكن فقري بالمال، وأطلب من اللّه أن يمنحني الإيمان به... وهو أمر الذي لا أفضل عليه بيتا أو أرضا أو عمارة... كلها زائلة والباقي وجه اللّه»...

ومن صور كرمه، رغم ضيق ذات اليد، أنه تعرف على أحد الأشخاص، والذي كان يعيل أسرة مكونه من خمسة أنفار.. فأشفق عليهم وساعدهم بقدر ما استطاع، ولما توفي الرجل تكفل محمود بأحد أبنائه بشكل دائم، فكان يكسوه قبل أولاده، بل كان دائم التفكير فيه أكثر من أبنائه هو... وأنا بدوري (تقول زوجة محمود) سأظل مكرمة له كما أوصاني محمود رحمه اللّه.

كان مرهف الأحاسيس... هكذا كان محمود... فكان يحزن حزنا شديدا إذا ما رأى محتاجا أو مهموما، وكان في بعض الليالي يصيبه الأرق فلا يزور النوم جفنه لشدة تأثره بما يراه من أحوال الناس... ولقد وصل به الأمر إلى حدّ التبرع بسرير ابنتنا «دعاء» لأحد الأطفال الأيتام، ففي حين كنت أجلس مع أخته التي تكفلت هي أيضا بتربية طفل، كانت تحدثني أنها تفكر بشراء سرير لطفل ولا تقدر على ذلك بسبب الوضع المالي لزوجها.. وبدون حتى أن يسألني أو أن يأخذ رأيي توجه محمود للغرفة المجاورة وحمل ابنتنا من سريرها الذي كانت تنام عليه ووضعها في مكان آخر، ليهدي السرير لذلك الطفل...»...

وفي مرة أخرى وبعد أن رزقنا اللّه بابنتنا «دعاء» قدمت لي إحدى النساء هدية هي عبارة عن حرام صوف ولما رآه محمود فشاهده سألني: كم حراما لدينا؟ فقلت: ثلاثة.. عندها قال لي: واحد يكفي والآخران من نصيب الفقراء!!... وعندما سألته وأنا أبتسم: كيف ذلك يا محمود؟!... أجابني والابتسامة تعلو وجهه: «فرجي على الناس همومهم لكي يفرّج اللّه عنا يوم الحشر»!!...

وتواصل زوجته حديثها عن محمود الكريم المعطاء:... «في مرة ثالثة فوجئت بمحمود يحمل اسطوانة الغاز ويخرج بها.. ولما سألته: إلى أين أنت ذاهب بها؟ قال

لي: التقيت بجارنا أبو فلان، وقد اشتكى لي من عدم قدرته على شراء غاز». وعندما قلت لمحمود: لكن لا يوجد لدينا غيره. رد عليّ قائلا: بإمكاننا أن نعيش بدون غاز. وسلم الاسطوانة للرجل وهو سعيد!!. وذات مرة اشترى لنا ثلاجة لكننا لم نكد نفرح بها حتى قدمها هدية لوالدته، وقد أمضيت بعد ذلك عامين بدون ثلاجة، وكنت إذا احتجت أن أضع طعاما في الثلاجة كنا نضعه لدى الجيران!!.

وفي أحد أيام الصيف حضر لبيتنا أحد الجيران وطلب ماء للشرب، ولم يكن عندي سوى قنينة واحدة فأعطاها محمود له، فقلت له ماذا سنفعل بدون ماء إنها لابنتك «دعاء»؟؟ فقال: إن اللّه يرزقنا من حيث لا نحتسب. وبالفعل فبعد قليل بكت «دعاء» تريد ماءً، فقلت له: ماذا أفعل الآن؟... فرد علي: اصبري وسييسرها اللّه. فذهبت لجارتي وأحضرت بعض الماء فسقيت ابنتي، وقد اعتدت بعد معرفتي الجيدة به على عدم معارضته بسبب حبي وتقديري الكبيرين له، ولقوة إقناعه، وكذلك لاقتناعي بأن ما يفعله هو الخير والأفضل.

كان ليله القرآن!!...

وحول أخلاقه وعباداته لم تجد أمه أفضل من هذه الكلمات: (..كان يؤدي الصلاة في مواعيدها، ويقطع الليل في تلاوة القرآن وفي الصلاة... صلاة قيام الليل...»...

وقد جعل محمود في كل ذلك من سيرة المصطفى صلى اللّه عليه وسلم له هاديا، إذ كان يعيش على أقلّ القليل، وكان دائم التصدق على الفقراء والمحتاجين اقتداء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وإذا حصل على مساعدة أو هدية أو هبة كان يبحث عن صديق أو جار محتاج فيقدمها له؛ على الرغم من كونه في أشد الحاجة لها، نظرا لصعوبة أحواله... لقد كان يتأسى بقوله عز من قائل: {يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة}... كان كريما، معطاء، محبا لغيره، فعندما كان يعمل في مجالِ القصارة اشترى عدة شغل كاملة بمبلغٍ كبير، وعندما توقف عن العمل وأصبح مطارداً قدم العدة هدية لأحد أصدقائه رافضاً أخذ ثمنها.

أما عن علاقته بجيرانه وبأهل الحي فقد كانت ممتازة، حيث اعتاد محمود على مشاركتهم أفراحهم، ومواساتهم في أتراحهم، وكان لا يتوانى عن مساعدة المحتاج والفقير... وفي الأعياد كان لمحمود سلوك تميز به، حيث كان يستيقظ مبكرا، فيؤدي صلاة العيد، ثم يزور جميع الجيران ويعايد عليهم فردا فردا.. الغريب أن محمود لم يتخلَ عن هذا السلوك المحبب حتى أثناء مطاردته من قبل جنود الاحتلال، وقد كان يزور أضرحة الشهداء فيقرأ على أرواحهم الفاتحة، أو يزور ذويهم فيسلم عليهم، ثم يتابع رحلته المعتادة...

نعم الابن لأسرته...

وعن علاقة محمود بأسرته تقول أمه: (تميز محمود رحمه اللّه بأنه كان حنونا جدا، فكثيرا ما كان يتودد لي دوما ويعطف عليّ، وعندما كان يغيب عني كنت أغضب، فإذا ما حضر في اليوم التالي كان يعتذر، ويقبل رأسي، ويقبل والده وإخوانه جميعا.. كما كان يقبلني ويدعو لي بطول العمر... لم يغضبني أبدا، وعندما أمرض كان يلازم فراشي، فيقرأ على رأسي القرآن، وينصحني بتلاوته لأن فيه شفاء من كل الأمراض»...

«...كان كريما عطوفا..» (تواصل أمه حديثها) فحين كان يعمل كان يضع نقوده معي دون حسيب أو رقيب، وعندما قلت له ذات مرة: «دعني أسجل لك ورقة بما لديك من أموال معي لتحفظ حقك إذا حصل لي مكروه» يومها غضب غضبا شديدا، وقال لي: «ما أقدمه لك هو من اللّه عز وجل وأنت حرة فيه وإذا قدّمتِه لإخواني جزاك اللّه عني وعنهم كل خير»..

وحول صلته لرحمه تتحدث أمه عن زواجه، حيث اختار ابنة خالته لتكون زوجة له... اختارها عن طيب خاطر لعلمه بأن في ذلك براً بأمه وبأهله جميعا... تقول أمه عن ذلك: «..فرحت كثيرا بزفافه وقد أقام عرسا دينيا تحدث الجميع عنه، وقد رفض محمود إحضار فرق أو دبكة كما يفعل بعض الشباب، رفضها لأنها مخالفه للدين»... وقد كان ذلك عملا مشكورا من أعمال محمود، والتي أصبحت فيما بعد قدوة لغيره من الشباب، إذ كان الجميع يمتدح ما قام به؛ قائلين له: «شكرا لك يا شيخ محمود، لقد كان عرسا ملائكيا..» وعندها كانت معالم الرضا والارتياح ترتسم على محياه لحسن اختياره ما يرضي اللّه عز وجل.. علما بأن حفلات المجون والرقص كانت سائدة لدى زواجه...

وبعد زواجه أحبت أمه أن يسكن وحيدا لتتوفر له خصوصية تمكنه من الاستمتاع بحياته الجديدة، لكنه ترك مسكنه الجديد وعاد للسكن مع أسرته، مصرا على الحياة المشتركة معهم، فزادت محبته في قلب أمه، حيث لم يبخل على أسرته بماله؛ على الرغم من متطلبات الزواج، بل على العكس من ذلك، فقد كان دوما يساعد في تحمل أعباء الحياة عن أسرته، فكان بذلك نعم الابن المخلص... كما وصفته أمه بذلك.

منذور للجهاد
للكفاح والجهاد نذر محمود نفسه

يتحدث والد محمود عن حياة ابنه في ظل الدعوة والجهاد، حيث أصبح منذورا لحياته الجديدة التي بات مقتنعا بها أيما اقتناع، لقد كان محمود متيقنا أن لا حياة بدون دين، ولا دين بدون جهاد، فكانت الدعوة والجهاد وسائله لإصلاح شأن الحياة التي نعيشها أفرادا، وشعبا، وأمة!...

يقول والد محمود: «..محمود رحمه اللّه وهب حياته للدعوة والجهاد، فكان يتنقل من منطقه لأخرى؛ حيث يحث الناس على العودة إلى اللّه والإيمان به..»..

ولقد ساعد محمود على أداء رسالته امتلاكه لروح كبيرة، وإيمان عميق، إلى جانب ذلك كله امتلاكه لشخصية قوية جعلته مؤثرا في كل من يعرفه.. فكثيراً ما كان يجالس أحد الأشخاص فإذا به يخرج بعد تلك الجلسة وهو على قناعة بالدين، فيصبح من ساعتها مخلصا ملتزما بأداء الشعائر... لذا فقد التحق غالبية شباب الحي بحلقات الإيمان والوعي والإرشاد التي شكلها محمود، وقد أصبح هؤلاء الشباب، فيما بعد، من أكثر الشباب انتماءً للإسلام دعوة وجهاد!!...

اعتنى محمود عناية بالغة بالنواحي الدعوية، واهتم اهتماما كبيرا بأداء الشعائر، حيث تجاوز ذلك كله بالطاعات والقربات... فقد كان يدرك أن طريق الدعوة بالكلمة سيؤدي به حتما إلى طريق آخر هو طريق الجهاد بالسيف... جهاد المستكبرين من غاصبين محتلين صبوا ظلمهم وعدوانهم على الإنسان والشجر والحجر... لقد كان محمود مؤمنا بعدل اللّه عز وجل الذي فرض القتال كسبيل وحيد للتعامل مع محتل فاجر غاصب... وهكذا كان...

ففي بداية مطاردته من قبل أجهزة الأمن الصهيونية كانت أسرته تخاف عليه كثيرا من الاغتيال، أو أن تفلح قوات الاحتلال الصهيوني في اعتقاله على أقل تقدير... وتتحدث والدته عن تلك الفترة بالقول: «كنت قلقة على محمود، وكان قلبي يتفطر لأجله وأنا أراه مطاردا قلقا لا يستقر في مكان...» وعندما كنت أقول له «يا ابني اترك هذا الأمر، فالأمر لا يخصنا نحن وحدنا...» عندها كان يغضب ويقول لي: «لا دخل لنا والآخرين.. فاللّه خلق لكل فرد عقلا يفكر به ويتدبر.. الآخرون يريدون الدنيا فحصلوا عليها، ونحن نريد الآخرة والشهادة في سبيل اللّه فأدعو اللّه أن يكرمنا بها»!!...

وبكلمات يشوبها بعض الندم تواصل أمه: «لقد حاولت التأثير عليه بكل ما هو عزيز لديه لكي يترك ذلك الطريق»... كنت أقول له: «إن كلمة «بابا» تنطلق من فم ابنتك «دعاء» تساوي الدنيا وما فيها»... لكنه كان شديد الإيمان بما يفعل،

إذ كان يردّ علي: «هذا صحيح يا أمي... فابنتي أغلى عليّ من الدنيا... لكن كلمة اللّه أغلى عليّ من ابنتي ومن أي شيء آخر... اللّه قبل كل شيء وبعده، هو خلقنا ويعلم بأحوالنا، وسواء أعشت أو استشهدت فهو يتولى ابنتي وزوجتي من بعدي، كما يتولى أسرة كل شهيد سقط على ثرى هذا الوطن الحبيب»...

جهاد... جهاد... نصر أو استشهاد!!..

وفي أثناء مطاردته.. كان محمود يصنع العبوات البدائية (الكواع)... وعندما كانت أمه تخاطبه: «دعك من هذا يا محمود... فهو خطر عليك... بإمكانك أن ترضي اللّه بأن تبني مسجدا»... كان يرد عليها بكلمات من وعى طبيعة رسالته: «بناء مسجد أمر جيد... لكنه لا يسد مسد الجهاد في سبيل اللّه، فأنت ترين يا أمي ما يقع على الناس من ظلم، لقد قتلوا الأطفال، وهدموا المساجد، وأهانوا المقدسات... فماذا يجدينا مسجد جديد ينضم إلى قوائم المساجد التي تهان»!؟... «كنت أعلم بأن منطقه صادق، وبأن المساجد تحتاج لمن يحميها بالفعل... لذا فقد كنت أصمت».. قالت أمه.

وبقلب الأم كانت والدته تعود لمخاطبته في هذا الأمر مرة بعد مرة، على الرغم من قناعتها بأن ما يفعله هو الصواب، فكانت تأتيه مجادلة أو متحايلة... إلا أنه كان في كل مرة يقنعها بصواب ما يفعله... تقول والدته: «في كل مرة كنت أناقشه فيها أو أجادله كان يقنعني بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية... فكنت أتأكد من أنه يسير في الطريق الصحيح، لقد أدركت أخيرا بأنني أخطئ كثيرا عندما أطلب منه ترك الجهاد في سبيل اللّه، لذا فقد حزنت كثيرا لأن حبي لابني جعلني أفضل بقاءه إلى جانبي على قيامه بواجب فرضه اللّه عليه!... وكان هو في المقابل يعطف علي ويمسح عن قلبي دمعته، قائلا لي: «لا تحزني يا أمي، فأنت أم، واللّه يعلم مدى حبك لي، سيغفر لك اللّه يا أمي»!!...

ومن يومها، تقول أمه، «تغيرت أنا كذلك، أصبحت مؤمنة بما يقوم به محمود، ومقتنعة به أيضا... فقد رأيت الظلم الذي يقع علينا... ومن يوم ليوم تغير حديثي معه، وآمنت بكل كلمة يقولها فباركت له الشهادة منذ فترة طويلة وشعرت أنه ليس من طلاب الحياة، بل من طلاب الشهادة، أحسست بأنه سيرحل في أية لحظة، وبأنه سيفارقني قريبا..»... وتواصل أمه: «..في الفترة الأخيرة كان دائم الطلب مني أن أدعو له أن ينال الشهادة، أصبحت يومها لا أتردد في الدعاء له، كنت أرفع وجهي للسماء وأدعو لابني بفخر، أن يكرمه اللّه بالشهادة في سبيله..»..

وكأن التبدل الذي طرأ على حال أمه أقنعه بأن مرحلة جديدة توشك أن تفتح أبوابها أمامه، فلقد دخل محمود إلى مرحلة عاش فيها الشهادة قبل أن يلاقيها حقيقة!!، فقد كان دائم البكاء والضراعة إلى اللّه، وكان دائم التذكر لرفاقه الذين سبقوه على

درب الشهادة والاستشهاد... لقد ملكوا عليه سمعه وبصره، وأحاطت به صورهم من كل جانب... كان يراهم في صحوه وفي نومه، لذا فقد بدا حديثه الدائم عنهم وكأنه حديث عن كرامات الأولياء الصالحين المصطفين الأبرار... كان يضرع إلى اللّه أن يرزقه الشهادة مثلهم، وأن يعطيه ما أعطاهم من منزلة...

وقد سألته أمه ذات مرة... «يا بني... أليس صعبا على الواحد منكم أن يفجر نفسه؟!»... فأجابها ضاحكا... وكأنه صوفي تلاشت أمامه الحجب فلا يرى إلا ما في القلب من نور: «ليس الأمر كما تعتقدين يا أمي... فمن يفجر نفسه لا يكون إلا اللّه في قلبه... قلبه يتفجر منه النور، فلا يرى إلا الجنة، ولا يملأ خياله إلا الملائكة تستقبله وتحتفي به»!...

أما عن واقعة استشهاده فتتحدث أمه: «قد تعجبون من أنني لا أرتدي زيا أسودا كما تفعل الأمهات عندما يفقدن أولادهنّ فأنا لم أفقد ولدي... إنه شهيد حي في حفظ اللّه ورعايته... لا تعجبوا إذا ما رأيتم أمهات الشهداء يوزعن الحلوى باستشهاد أبنائهن... فقد وفيت بوصية محمود الذي أوصاني بأن أوزع حلوى عند استشهاده، وأن لا ألبس الأسود... إن في صدري شوقاً لابني، لكنني لا أمتلك إلا أن أبارك له شهادته وأقول له: شعب فلسطين كله يعتز بك وسيمضي على دربك ولن ييأس أو يستسلم». وتواصل والدة محمود: «كنت أعلم دائما بأن ابني منذور للشهادة، وفي آخر مرة رأيته فيها بدا لي وكأن مشاعل من نور تحف به، وحينها أدركت أنه ذاهب عني بغير عودة... فباركت له بالشهادة»..

محمود...كما شهدت له زوجته!!

الاسم: سماح جودت سليم أبو الوفا. ٢٤ عاما من قرية الزاوية القريبة من جنين، ترتبط بعلاقة قرابة مع الشهيد فوالدتها حياة شقيقته والدة طوالبه ووالدها يعمل مزارعا وقد خطبت لمحمود في ٢٤-٥-١٩٩٨.

كانت زوجة محمود وهي تتحدث منبسطة الأسارير وسعيدة جدا لا يوجد في صوتها أو كلماتها أي مسحة أو معنى للحزن أو الألم فسألتها كيف تتحدثين بهذه الروح وزوجك فارقك للابد وهل أنت مبسوطة ؟فضحكت وقالت نعم مبسوطة لأنني زوجة شهيد مجاهد مؤمن. عندما كنت أسأله ماذا سأعمل إذا استشهدت، يرد علي قائلا اصبري لأننا سنلتقي بالجنة، فقلت له: إذا غبت عني فترة بسيطة أبكي فماذا أفعل على فراقك؟ فقال لي: الرسول عليه السلام بكى، ولكن إحذري النواح والعويل والحداد؛ فاصبري وصابري وتذكري أنني ذاهب للقاء وجه ربي للجنة فلا تحرقيني بدموعك ولا تؤخري لقائي بوجهه الكريم. وعندما سألته ولكن سأتغلب كثيرا بحياتي وتربية أطفالي فأشفق علينا، قال لي: اللّه معك ومعهم وسييسر لك أمورك، لذلك كله أنا

سعيدة لأن زوجي استشهد وهو يجاهد لتحقيق فرض اللّه الجهاد، وأي كرامة أكبر من ذلك ولأن رؤياه تحققت. ورغم فقداني له فإن اللّه ييسر أموري ولم أتغلب منذ رحيله بشيء.

وعن الصفات الشخصية لمحمود تتحدث سماح زوجته فتقول: «من يعرف محمود ويستمع لحديثه لا يمكن إلا أن يأسر قلبه وعقله ويحبه ويقدره كثيرا، فقد كان، رحمه اللّه، خلوقاً، متواضعاً، بسيطاً، خجولاً، معطاء، كريماً طويل النفس، صبوراً، متزناً... وعندما خطبني كان محمود يعمل في القصارة في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ وكانت زياراته لنا محدودة بسبب ظروف عمله الصعب والقاسي، لكني وجدت فيه مثالا للشاب المؤمن المخلص والمهذب، لقد كان يتمتع بوعي نادرا ما نراه في شباب هذه الأيام، وعندما كنا نجلس أو نخرج لنتمشى أو لزيارة أحد أو شراء شيء ما.. كان يقول لي: «أنظري يا سماح... كم جميلة هي الدنيا... لكن الآخرة أحلى واجمل».

وكنت قد خطبنا أنا ومحمود لمدة سنتين، وتأخر زواجنا بسبب الظروف القاسية، وقد مضى على زواجنا أربعة أعوام، لم أجده يتأخر فيها يوما عن صلاة مكتوبة»...

وتتحدث سماح زوجة محمود عن بعض أحلامه التي كانت تراوده بين جولة وأخرى من جولات منازلة العدو... تقول سماح: كانت أحلامه بسيطة ومتواضعة... كان يحلم بأن يرزقه اللّه بولد فيسميه «عبد اللّه»... لكن حتى في أجمل أحلامه لم يكن محمود ينسى أن أفضل ما يتمناه هو الشهادة في سبيل اللّه... وفي ذات مرة سألته عن المولود الذي يتمناه: لماذا «عبد اللّه» بالذات؟ لماذا لا نسميه مراد مثلاً؟... لكنه رفض قائلا: اخترت له اسم «عبد اللّه» استبشارا بأن يكون عبداً للّه... فجميعنا عبيد للّه.. وقد أطلق على ابنته الأولى اسم «دعاء» معللا ذلك الاختيار بقوله: أختار لها هذا الاسم لأن كل أعمالنا الصالحة تبدأ به... فهو التوجه للّه... وأرجو من اللّه أن تكون «دعاء» دعوة مستجابة تقربنا لوجه اللّه الكريم.

وتواصل زوجته ذكرياتها: منذ زواجنا اعتاد محمود على قراءة القرآن يوميا، وإذا لم يتمكن من ذلك فكان يستمع لشريط تسجيل، فكان يقضي عدة ساعات في سماع القرآن والدروس الدينية؛ وكذلك أنا، حيث كان محمود قد أكد لي على أهمية ذلك يوميا، وقد التزمت بهذا الأمر، وسأظل ملتزمة بكل وصاياه إن شاء اللّه..

وعن عاداته تتحدث زوجته بالقول: كان محبا للإصلاح وعمل الخير، قارئا للقرآن باهتمام، وكثيرا ما كان يختتم يومه به، إذ كان عند النوم لا يغفو إلا على صوت القرآن الكريم... فقد كان يحتفظ بمكتبة دينية كبيرة تضم عدداً كبيراً من الأشرطة والكتب الدينية... أما عن التلفاز فقليلا ما كان يشاهده، ولم يتابع من برامجه إلا تلك المتعلقة بالقرآن الكريم... وخصوصا تلك التي تبثها محطة «إقرأ» الفضائية

وكذلك تلفزيون «المنار» التابع لحزب اللّه.. وكان كثيرا ما ينهاني عن مشاهدة المحطات الأخرى لأنها تنشر الفساد، وبالفعل عودنا أنفسنا على مشاهدة البرامج الهادفة، فكنا نتابع الأخبار، وكذلك البرامج الدينية التي تبثها المحطات المذكورة.
وعن قلبه الطيب ورأفته بها تتحدث زوجته بتأثر: رغم عمله الشاق فلم يكن محمود ليتأخر لحظة عن مساعدتي، فإذا مرضت أصبح طبيبي وممرضي، إلى أن أشفى، وإذا أصابني هم ظلّ يفرج عني كربي ويخفف ألمي، وإذا تكاثرت عليّ مشاغل البيت أسرع لمساعدتي... لم يكن يخجل، رحمه اللّه، من مساعدتي رغم انتقاد بعضهم له.. فكان يغسل الصحون، ويكنس البيت، ويطبخ الطعام... في كثير من الأحيان!!...
ففي إحدى المرات انتقده صديق له... فرد عليه محمود قائلاً: لا عيب إلا العيب... أما مساعدة أسرتي فواجب فالرسول عليه السلام كان يساعد زوجاته، ورحمه اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين قال: (ما أكرمهنّ إلا كريم، وما أهانهنّ إلا لئيم)... كذلك فقد اعتدنا أن نقوم في كثير من الأحيان بتغسيل ابنتنا «دعاء».. فكان هو يحملها بينما أقوم أنا بإلباسها ملابسها!!...
ومما كان يعرف عنه رحمه اللّه أنه كان يميل إلى اختيار اللون الأخضر في ملبسه وفي بيته وفي شتى شؤون حياته... وعندما كنت أسأله عن ذلك كان يقول إنه لون الجنة... لذلك حاول أن تكون حياتنا خضراء سعيا لجنة اللّه الأكبر والأجمل... كما كان يقول دوما.
وتتذكر له زوجته أنها طلبت منه هدية الزواج... طلبت منه شهر عسل ،كما يقال، لكنها اختارت أن يكون شهرا في أحب بلاد اللّه إلى اللّه... في الأرض المقدسة... تقول: قضينا أجمل شهر، قضيناه في العمرة، وبالفعل سافرنا معا للعمرة، حيث بعت الحلي الذهبية الخاصة بي لأننا لم نكن نملك غيرها للقيام بالعمرة...
ولعل زوجة محمود هي الشخص الوحيد القادر على إعطاء صورة عن قرب لهذا الإنسان المسمى محمود، فقد عاشت معه وعايشت همومه وتطلعاته، شهدت مولد ابتساماته وتحدر دمعاته... فجاءت شهادتها كما يلي:
خلال فترة زواجنا تعرفت على محمود الإنسان، محمود الذي يسكن روحه صدّيق ويوجه خطواته قدر إلهي أراد له أن يكون ما كانه بالفعل... رمزا لقضية حق وإنسان مظلوم!!...
لقد عرفته في فترة ازدادت فيها حدة القمع الصهيوني لشعبنا، فازداد تأثر محمود بما يسمعه ويشاهده من صور المعاناة والألم التي يمر بها شعب فلسطين يوميا... كان الشعب الفلسطيني بالنسبة لمحمود أكثر من أهل فقد كان هذا الشعب يمثل له أهل الأرض المقدسة، وشعب أرض الإسراء والمعراج... وكانت أرض فلسطين بالنسبة له أكثر من وطن... فقد كانت تمثل له قدسية الأشياء جميعا... قدسية

المكان والزمان ، قدسية التراب، وقدسية التاريخ كله... فكيف لا يضحي من أجلها بروحه؟!... من هنا فقد قرر محمود الانخراط في هذه المعركة المقدسة... معركة القدس والمقدسات، معركة التاريخ الغالي والتراب العزيز...

وتواصل زوجته: بعد عام من زواجي التحق محمود بالجهاد الإسلامي ولم يكن له انتماء سابق في أي وقت من الأوقات، وقد التحق محمود بالجهاد الإسلامي عن إيمان وقناعة ووعي، وبعد دراسة.. ومن خلال نشاطه الحركي مارس محمود نشاطه العسكري، والذي كان سرياً، بطبيعة الحال، فلم نكن نعلم أنه يقوم بتصنيع بعض أنواع الأسلحة والمتفجرات...

وتواصل زوجة محمود حديثها حيث تلوح على وجهها ظل ابتسامة حزينة.. كان أول خرطوش صنعه محمود قبل أن يطارد صنعه في بيتنا، أنا لم أشاهده وهو يصنعه؛ لكن عندما عدت من السوق فوجئت به يعبئ مادة غريبة سالت على الأرض وخربت الموكيت والسجاد... (تبتسم وتواصل الحديث) قلت له حينها: ما هذا يا محمود؟!... فرد عليّ ضاحكا: خرطوش... عندها بكيت، وقلت له: حرام عليك يا شيخ... خربت الدار!! فما كان منه إلا أن واصل الضحك وقال لي: إصبري... فاللّه سيعوضك خيراً منه!!!.

وتتحدث زوجة محمود عن القلق الذي انتابها حين علمت بانخراط زوجها في العمل الفدائي، حيث علمت من أن محمود ترك العمل وبدأ يتدرب على السلاح ويصنع الأكواع... وكما كل امرأة تخاف على بيتها ومستقبل أبنائها بدأت تجادله فيما يفعل... وطلبت منه التوقف عن ذلك النشاط... لكنه كان يجيبها دوما بإجابة واحدة: إقرأي القرآن الكريم وحينها ستكتشفين أهمية وعظمة الجهاد في هذا الدين... إنه فرض عين على من اغتصبت أرضه وانتهكت حرماته ودنست مقدساته...

وفي أحد الأيام قلت له يا محمود... إذا استشهدت فستموت أمك بعدك... فلماذا تؤلمها وتؤلمنا؟؟ عندها رد عليّ بالقول: أتستودعكم اللّه الذي لا تضيع ودائعه، هو سيتولاكم برحمته وعنايته، وهو سيصبرها ويصبركم...

وأمام إصرار محمود لم أجد بداً من العودة للقرآن الكريم ولأحاديث النبي صلى اللّه عليه وسلم لعلي أجد فيهما السلوى والتثبيت... وعندما فعلت ذلك أدركت صدق كلمات محمود... لقد فعل محمود كل ما فعل من منطلق القيام بالواجب، وكان خوفي نابعا من بواعث المصلحة الخاصة... مصلحتي كزوجة، ومصلحة أبنائي في أن يكون أبوهم بينهم... لكني أدركت أن واقعنا لا يسمح لنا بأن نعيش حياتنا الطبيعية، الاحتلال لا يسمح لمحمود أن يعيش كزوج وكأب... الاحتلال هو رأس كل شر في هذا البلد...

عندها بدأت أثوب إلى رشدي، وبدأت نفسيتي تتغير ومعارضتي تقل..

ورداً على سؤالنا لها: بعدما رأيت إصرار محمود على الجهاد في سبيل اللّه، فهل تمنيت له الشهادة التي طلبها وتمناها؟!... فردت زوجه محمود وهي تطلق ضحكة تعبر عن إيمانها بما تقول: أجل... صحيح أنني عارضت في البداية كل نشاطاته الخطرة، لكن بعد أن اقتنعت بما يقوم به فقد وجدت أن من الإخلاص له أن أدعو اللّه له بتقبل العمل الصالح الذي يقوم به... لقد دعوت اللّه أن يتقبله شهيدا على الدرب العظيم لكل من سبقوه... لقد تمنيت له الشهادة من قلبي وباركتها له بعد كل ما شاهدته من تمسكه بها وطلبه لها، إننا نعرف أن الإنسان يتمسك بالحياة حتى الرمق الأخير، ويكرهون ساعة الموت والفراق... لكن محمود كان مختلفاً، إذ كان يبكي من خشيةٍ اللّه وحبا في الاستشهاد، ولأجل هذه الأمنية كان يقطع نهاره صابراً، وليله مصلياً طائعاً...

وكثيرا ما قال لي:... إذا ما قام العدو بشن هجوم على المخيم فسأقاوم وأجاهد، لن أهرب ولن أستسلم، بل سأقاتلهم حتى آخر رمق... فلا يموت المرء قبل موعده بساعة... وكان دائما يدعم أفكاره بما يحفظ من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية... وفي لحظات اجتماع الأهل أو الأصدقاء معه كان حديثه فقط عن اللّه والإيمان والجهاد... فكان يقول: إسرائيل تدّعي أن شعبنا إرهابي.. لكننا سنؤكد للعالم حقيقة الإرهابي.. الإرهابي الذي يقتل، ويهدم، ويدمر.. إننا كشعب مظلوم لن نغفر.. ولن نسامح، وسيدفع الظالم ثمن جريمته مهما طال الزمن. وبعد مجزرة الجمعة السوداء في جنين والتي راح ضحيتها خمسة شهداء ، وذلك في اليوم الأول من شهر رمضان تأثر محمود كثيرا بالمجزرة وقال لي: انظري كيف ينزف دمنا بدون جريرة أو سبب... سنجعلهم يدفعون الثمن. قلت: ألا تخاف منهم؟... فرد عليّ بثقة: لا أخاف الموت.. فإرادة اللّه أقوى من كل ظالم، وسيمنحنا اللّه القوة لمقاتلتهم... ويواصل بأسى: إسرائيل كيان طغاة وإجرام... وسينتقم اللّه لدماء الأبرياء... سينتقم للمواليد الذين يقتلون على الحواجز، وللأطفال الذين تدوسهم الدبابات في ملاعب الكرة، وللشباب الذين يُقتلون وهم يطلبون لقمة عيش مغمسة بالتراب والدم... أؤمن أن اللّه سينتقم لمن لا يملكون حولا ولا قوة للدفاع عن أنفسهم.

كل هذا جعلني دائمة الدعاء للّه أن يعطيه ما يتمناه من قوة ثبات، لأجل أن يبلغ أهدافه السامية المتمثلة في الدفاع عن أبناء شعبه أولا، وفي بلوغ مرتبة الشهادة في سبيل اللّه ثانيا... كل هذا الحب وتلك العظمة في طلب العدل للضعفاء وكل هذا الثبات في طلب الشهادة... جعلني أدعو اللّه بصدق أن يحقق أمنيته.

أذكر هذا البطل الذي تشرفت بأن كان زوجي... أتذكره دائما إذ أراه حانقا على ما يلاقيه الناس من ظلم فادح، ولا يفارق مخيلتي محمود وهو يقسم باللّه العظيم على أن يثأر لدماء الأطفال: محمد الدرة وإيمان حجو، وسارة... كنت أسمعه دوما وهو

يتحدث عن الطفلة البريئة سارة.. ويقسم على الثأر لها ولكل الأطفال أمثالها.. وعندما كان يسمع أدعية الجهاد والمقاومة والإيمان، وخاصة في تلفزيون المنار، كان يبكي ويخر راكعاً لله، وداعيا: «اللهم ارحمنا، وأشفق علينا، وارزقنا الشهادة في سبيلك... اللهم اغفر لنا مغفرة واسعة، ولا تؤاخذنا بما قصّرنا إنك أرحم الراحمين».

روح قيادية آسرة

خلال مطاردته تعرف الشهيد على الشاب محمد نصر من قباطيا وتعمقت العلاقة بينهما بحيث أصبح محمد مقربا منه كثيرا حتى طلب منه تجهيزه لتنفيذ عملية استشهادية وبالفعل استجاب محمود له وأرسله ونفذ عملية.
وتوطدت العلاقة بين محمود والشاب نضال الجبالي من مخيم جنين ويوسف سويطات رغم أن الأخير يعمل في جهاز المباحث العامة في الشرطة وتمكن محمود من تجنيدهما للجهاد الإسلامي وقد طلب نضال ويوسف منه سلاحا لمهاجمه الصهاينة، وبالفعل وفر لهما السلاح ونفذا هجوما في مدينة الخضيرة.

وعن علاقة محمود ببعض المقربين به تتحدث زوجته:
تغيرت حياة محمود وتحركاته بعد التحاقه بحركة الجهاد الإسلامي، حيث بدأت تطرق سمعي أسماء لأشخاص أصبحوا فيما بعد من المقربين من محمود، فبدأت أسمع أسماء مثل اياد حردان وغيره، حيث اكتشفت فيما بعد أنهم مجاهدون ومقاتلون أشداء، وقد استمد منهم الكثير من الخبرة، حيث كانا ينسقان معا للقيام بأنشطة مختلفة. وبعد استشهاد إياد أبلغني محمود أنه تأثر جدا بمواقفه وبطولاته كثيرا، وقد غضب محمود لسماع نبأ اغتيال إياد، وقد سمعته في تلك الليلة وهو يصلي باكيا مقسماً على الثأر والانتقام لدم رفيق دربه...
كذلك كان الشهيد أسامة تركمان رحمه الله، والذي كان من أحب أصدقائه إلى قلبه، هؤلاء كانوا أهله بعد أهله، لذا فقد حزن على فراقهم حزنا شديدا، وقد تأثر باستشهادهم؛ حيث أقسم على الوفاء لهم؛ والثار لدمائهم..
ومن أصدقائه كذلك الشهيد/ عبد الرحيم فرج، والذي عاش معه فترة طويلة فكان رفيق الدرب، واستشهد معه في نفس معركة مخيم جنين فكان الرفيق في نهاية اختاراها برغبتهما، وبحرّ إرادتهما..
أما القائد ثابت مرادوي فقد كان مقربا إلى قلب محمود، حيث يعتبر من أبرز المقاتلين وأشدهم صلابة، وقد تمركزت عملياته في منطقه الدمج وحي البلاص، وقد شوهد مرداوي وهو يتصدى وحيدا لقوة من المشاة حاولت التسلل من خلف المستشفى الحكومي، وقد تمكن من مهاجمتها وتأخيرها حتى وصلت قوة إسناد

من المجاهدين، حيث قاتلت إلى جانبه حتى دحروا القوة الغازية. ويروي أهالي حي الدمج أن مرادوي كان جريئا جدا ينصب الكمائن للجنود، ويلاحق القناصة والفرق الراجلة، ويطلق النار عليها... وقد قام باقتحام المنازل بشكل جريء لدى سماعه باحتلال الجنود لها، حيث كان يطلق النار بكثافة، وقد أثارت مقاومته رعب وهلع الصهاينة.

المطلوب رقم واحد

كيف أصبح محمود مطارداً؟!!

لعدة أشهر خلت من عمر الانتفاضة حرص محمود على عدم الظهور العلني وتابع نشاطه السري دون علم أحد ممن هم حوله، حتى أنه لم يكن يشارك بالمسيرات... لكن أهله فوجئوا عندما تم نشر أخبار مفادها أن محمود طوالبه مسؤول الجهاد الإسلامي يجند «منتحرين» لتنفيذ عمليات في داخل (إسرائيل)، وذلك بعد اعتقال شاب من قرية الهاشمية خلال محاولته تفجير نفسه قرب العفولة، وفي التحقيق الذي أجري معه اعترف ذلك الشاب أن محمود طوالبه قد جنده؛ ودربه؛ وسلمه حزاماً ناسفاً... ولم يعلق محمود يومها على تلك الأخبار، لكن تصرفاته وتحركاته تغيرت، خاصة وأن وسائل الإعلام بدأت تردد اسمه كثيرا، وقد وضعت أجهزة الأمن الصهيونية اسمه على رأس قائمة المطلوبين، خاصة بعد تنفيذ صديقه أسامة أبو الهيجاء ورفيقه علاء الصباح أول عملية استشهادية لسرايا القدس في الضفة خلال الانتفاضة، وهي التي تم تنفيذها في مدينة الخضيرة المحتلة، وقد اتهمته (إسرائيل) بالوقوف وراء العملية...

..وقد أقام محمود علاقة مميزة مع أسامة أبو الهيجاء (الاستشهادي الأول في مخيم جنين) حيث كان جارا قريبا بالنسبة لمحمود، فكانا يدرسان معا، ويذهبان إلى المدرسة معا... كانا لا يفترقان عن بعضهما بعضاً إلا عند النوم، كما أنهما اشتركا في تصنيع المواسير معا، وكان حديثهما ينصب دوما على مقاومة اليهود.

سألت سماح كيف عرفت أن زوجك مطلوب لقوات الاحتلال الصهيوني؟

ابتسمت وحدقت طويلا في صورة محمود وقالت: عندما نشروا بعض صور المطلوبين في الصحافة والتلفزيون تعرفت على صورة محمود على الفور... أتذكر تلك اللحظة جيدا... كنت أنا ومحمود نتابع التلفزيون عندما قال المذيع أن طوالبه هو المطلوب رقم (١) لإسرائيل، وأنه هو ومرداوي من أخطر مطلوبي الجهاد الإسلامي لإسرائيل... عندها ضحك مطولا... فقلت له بغضب: يقولون عنك بأنك «أخطر مطلوب» وأراك بعد ذلك تضحك؟... فقال لي: رقم واحد مثل رقم ألف... لن يقصروا عمري بيوم

واحد... إنهم ضعفاء، لن يغيروا حرفا في كتاب قدري ومصيري، وليس هناك من يموت قبل موعده بساعة...
وكان يردد: إن خشينا اليهود فاللّه أحق أن نخشاه...
بعد ذلك تغير نهج حياتي حيث بدأ محمود يمارس دوره الجهادي بشكل علني رافضا العيش هاربا... وقد أصر على مواصلة المعركة والحياة مع أسرته... وبإذن اللّه وفضله فقد تمكن محمود من إفشال ٤ محاولات لاغتياله... الأولى يوم أن اغتالوا الشهيد معتصم الصباغ؛ فنجا محمود يومها من الموت بأعجوبة... والثانية عندما قصفوا سيارة قرب المقاطعة لأنهم اعتقدوا بوجوده داخلها... والثالثة بتفجير سيارة كان محمود يقف بقربها، وقد استشهد يومها الشهيد عكرمة استيتي ومجدي الطيب وكلاهما من كتائب شهداء الأقصى... أما المحاولة الرابعة لاغتياله فقد تمت عندما كان في سجن السلطة في نابلس، حيث قام الإسرائيليون بقصف السجن... وقد نجا محمود من الموت بأعجوبة.. فوهب حياته للجهاد وأصبح أكثر استعدادا للتضحية والعطاء والمقاومة.

الوداع الأخير

تواصل زوجة محمود شهادتها عن زوجها، هذا الشاب الذي أحسن الاختيار، والذي فضل الجهاد على التقاعس، والتعب على الراحة والدعة... محمود الذي فضّل الآخرة على الدنيا، واختار أن يبحث عن الشهادة في سبيل اللّه إلى أن لقيها!!...
تقول سماح: في الليلة التي سبقت الاجتياح حضر محمود للبيت وودعني وأطفالي... يومها شاهدت معه ثلاثة أحزمة ناسفه... حينها لفّ أحدها حول جسده وضحك... فما كان مني إلا أن ابتسمت وقلت له: واللّه لايق عليك يا شيخ محمود... ردّ عليّ:سأفجرهم بها!!...
وككل شهيد صدق اللّه فصدقه اللّه... لم يلتفت محمود وراءه، لم يلتفت إلى الدنيا بزخرفها، حتى الأهل والبنين لم يلتفت إليهم في اللحظات الأخيرة من رحلته المتعبة... تقول زوجته: في زيارته الأخيرة لنا رأيته يحمل ثلاثة أحزمة ناسفة، لم يكثر من الكلام في ذلك الوقت، وكل ما فعله هو أنه قبل أطفاله.. وقال: حملة اليهود هذه ستكون مختلفة عن المرات السابقة.. إنهم قادمون لهدف كبير هذه المرة... إنهم يسعون للقضاء علينا، لكننا لن نستسلم... سنقاومهم بقدر ما نستطيع... هكذا كتب اللّه علينا.. ألا نشمتهم فينا...
وتواصل سماح حديثها: شعرت أن محمود يكتب الفصل الأخير من حياته بيديه... كانت كلماته كأنها الوداع الأخير الذي لا لقاء بعده وقد أيقن هو بهذا وتقبله برضا وصبر...

تمالكت أعصابي، تقول سماح، وطلبت منه أن يحمل ابننا عبد اللّه الذي لم يكن عمره قد تجاوز الشهر... حمله محمود بتأثر، وقبله بحنان... ثم حمل صغيرتنا «دعاء» ونظر إليها نظرات طويلة.. قلت له وأنا موقنة بأنه يودعها الوداع الأخير: توكل على اللّه يا رجل... لك ولنا اللّه... وطلبت منه أن يسامحني فسامحني ، وطلبت منه أن يدعو لي اللّه أن يصبرني على تحمل مسؤولية تربية أولادنا تربية صالحه وأن أعلمهم أفضل تعليم... كانت أمنيته أن تنال إبنتنا «دعاء» ما تتمناه... وأن تصبح طبيبة أطفال... وأن يتخرج عبد اللّه من كلية الشريعة...

سامحني اللّه ،تواصل سماح، فعندما شاهدني على تلك الحال لم يتمالك نفسه فبكى، وبدأ يدعو اللّه لي بأدعية لم اسمعها منه من قبل؛ ثم قال لي: كوني على العهد يا سماح، فالقوات الإسرائيلية قادمة للمخيم، لكن بأعداد كبيرة هذه المرة... لقد وعد اللّه المجاهدين بالنصر أو الشهادة، وما أظن إلا أنها الشهادة هذه المرة... فلا تحزني، واحفظي الوصية...

قال ما قاله ثم سار عدة خطوات قليلة، وما لبث أن رجع... فبادرته بالقول: يحفظك اللّه... أستودعك اللّه الذي لا تضيع ودائعه... توكل على اللّه يا محمود فهو حسبك وهو نعم الوكيل...

..ذهب محمود وعاد عدة مرات وكأن شيئا يجذبه... وفي إحدى المرات قالت له ابنتنا «دعاء»: قبلني يا أبي مثلما تقبلني كل مرة... وهنا لم يتمالك نفسه، فحملها وعانقها بحرارة... مما زاد في ألمي وأنا أرقبه يعتصر شوقا لنا وهو ذاهب ويعلم أنه لن يعود إلينا إلا شهيدا!..

بعد أن قبل محمود صغاره خرج، إلا أنه عاد للمرة الأخيرة، فودعني، وقد نظرت إليه وهو يضع يده على زر التفجير في الحزام الذي كان يحمله على وسطه، وقلت له: حافظ على نفسك يا محمود... «دير بالك على حالك». فرد علي بالقول: توكلي على اللّه..

وانطلق ولم أشاهده طوال المعركة إلا مرة واحدة ومن مسافة بعيدة وقضيت الوقت أدعو اللّه له.. حتى جاءني نبأ استشهاده... في البداية بكيت ورفضت أن أصدق ذلك، ولكني تذكرت محمود وكلماته؛ فتغلبت على حزني وألمي..

أتذكر اليوم لحظاته الأخيرة لكنني لست نادمة على أن كنت زوجة لرجل اختار الشهادة على كل ما عداها... إنني فخورة بزوجي الشهيد، رغم أن محمود كان يملأ علينا البيت، كان للحياة معنى وطعم إلى جانب محمود.. لقد كان لي بمثابة الأب والأم والأخ والزوج والحياة، لذلك سأتابع إنجاز الأهداف التي وضعها نصب عينه في حياته وخلال مسيرته الطويلة، سأمنح أطفاله كل الحب والحنان... أتذكر كلماته وهو يودعنا: إن اللّه معنا ولن يضيعنا أبدا.. سيسهل لنا دربنا، وسيمنحنا العزيمة

على تجاوز الصعاب...
وتواصل سماح زوجة محمود وصف الأيام الأخيرة في حياتها: لست نادمه على شيء، لقد نال أمنية غالية وعزيزة على قلبه، وأتمنى لو كان لدي ولدان شابان ليحملا راية أبيهما وبندقيته.. وأقول لأم وزوجة كل شهيد: لا تبكوا على الأبطال فمنزلتهم ومكانتهم عند اللّه كبيرة، وسنلقاهم في الجنة إن شاء اللّه... وعلى كل امرأة فلسطينية أن تكون الخنساء...
هذا هو محمود الذي أحب الشهادة والشهداء، هذا هو محمود الذي عاش الشهادة أمنية، إلى أن ألحقه اللّه ،بفضله، في زمرة الشهداء الخالدين... وهذا هو محمود الذي ترك ذرية صالحة، محمود الذي كان يتبرع بغالبية راتبه للفقراء والمحتاجين... هذا الرجل ترك زوجة صالحة تبرعت بهدية الرئيس صدام حسين وقيمتها ٢٥ ألف دولار تبرعت بالمبلغ بكامله لصالح الفقراء والمحتاجين. وكأنها تريد أن تقول لمحمود: نحن على دربك حتى نلقاك في جنان الخلد إن شاء اللّه!!.

لقاءات يجمعها الحب!!

فيما يلي ننقل للقراء الأعزاء عددا من اللقاءات مع من عرفوا محمود عن قرب، عرفوه فأحبوه بعد أن احترموا فيه نبل أخلاقه... وكان بعضهم مقربا منه بحكم الصلات العائلية، بينما كان آخرون مجرد أناس عاديين التقوا به في أزقة المخيم... لكنهم جميعا أحبوه من أعماق قلوبهم ، تلك القلوب التي سيظل محمود فيها إلى أن يلحقوا به في جنات الخلد إن شاء اللّه.

اللقاء الأول: مع والد الشهيد

قبل أن أبدأ أسمي اللّه وأشكره بأن جعلني والد شهيد... وأشكره لأنه جعلني والد شهيد مثل محمود، عرف كرجل صالح في حياته وحفظ له الناس طيب الذكر بعد استشهاده...
إسمي احمد محمد خليل طوالبه، ولدت بتاريخ ٢-١١-١٩٥٠ وذلك في مدينة جنين؛ لأسرة فلسطينية لاجئة، أسرة فلسطينية أفقدتها النكبة واللجوء كل ما كانت تملكه من متاع الحياة... ووالدي محمد طوالبه ينحدر من قرية «نورس» المحاذية لبلدة «صندلة» والقريبة من مدينة جنين، وقد شرد والدي مع آلاف الفلسطينيين ممن تشردوا على أيدي العصابات الصهيونية وبتحالف بريطانيا مع التخاذل العربي.. حيث كانت نتيجة ذلك التحالف نكبة عام ١٩٤٨، وقد اقتحمت العصابات الصهيونية قريتنا؛ حيث بدأت بقتل وطرد الناس فتوجه والدي إلى جنين، ليبدأ رحلة اللجوء هو

وأسرته المكونة من خمسة أفراد.. وفي عام ١٩٥٥ إنتقل والدي من مدينة جنين إلى مخيمها، حيث لا زلنا نقيم ونتمسك بحق العودة لأراضينا المغتصبة والتي لن نتنازل عنها أو نفرط بذرة من ترابها...

ويواصل والد محمود شهادته: تلقيت دراستي في مدرسة وكالة الغوث الدولية في مخيم جنين؛ لكنني تركت المدرسة منذ كنت في الصف الخامس الابتدائي، والتحقت بالعمل لمساعدة والدي في إعالة أسرتنا الكبيرة، حيث كانت ظروفنا صعبة وبائسة، وقد تفتحت عيناي على الدنيا لأرى مناظر البؤس، ومآسي حياة اللجوء.. فقد أقامت أسرتنا في بيت بسيط كان عبارة عن «خشة» صغيرة تتكون من غرفة واحدة جدرانها من الطين وسقفها مغطى بألواح الزينكو.. بالإضافة إلى مطبخ صغير.. وككل البيوت الفلسطينية التي كان يعيش فيها اللاجئون الفلسطينيون فقد كان بيتنا يخلو من الماء أو الكهرباء، وكان يفتقر إلى المرافق الصحية؛ فأقيمت حمامات جماعية لخدمة بيوت متعددة في المخيم..

ويواصل والد محمود شهادته:... يصعب علي أن أجد الكلمات المناسبة لوصف واقع حياتنا في ذلك الوقت، ففي مثل تلك الظروف كان المخيم يمثل البؤس بعينه، حيث كان يفتقر لكل مقومات الحياة... كانت شوارعه تعيسة، ولا يوجد فيه مستشفى وإنما عيادة صحية صغيرة تابعة لوكالة الغوث.. وقد بدأت أعمل في كل مهنة شريفة تتاح لي وذلك لمساعدة والدي الذي عمل آنذاك في بيع الخضار على عربة متنقلة، وقد تمكن بالكاد من توفير أدنى مستلزماتنا فانضممت إليه وعملت معه.

وسط هذه الظروف الصعبة، يواصل والد محمود شهادته، تزوجت عام ١٩٧١ من تفاحة احمد محمد وهي مواطنة من قرية «مركة» القريبة من جنين، وبدأنا رحلة الحياة معا.. وعندما تزوجت كان عمري ٢٣ عاما، وقد تأخر زواجي بسبب ظروف الحياة البائسة في المخيم، وبعد زواجي انتقلت للعمل في محل للخضار في مدينة حيفا براتب بائس. وقد رزقت بعد عام من زواجي بابنتي البكر «ظريفة»، ثم تبعتها «ميسون» و«محمد» و«محمود» و«رائد» و«مراد» و«علاء» و«خليل» و«عبد اللّه»..

وقد بدأت حياتي بالسكن في بيت من الطين سقفه خشب قصيب ويتكون من غرفتين ومطبخ... لم استسلم لظروف الحياة الصعبة، وتمكنت خلال عملي من توفير مبلغ من المال اشتريت به منزلاً صغيرا في حي الحواشين.

... على مرّ الأيام لم يتغير الحال بنا كثيرا، بل إن ازدياد عدد أفراد العائلة ألقى بمزيد من الالتزامات المعيشية على كاهلي، فسافرت لعمان بحثا عن عمل، وعملت في محطة الفوسفات بأجر زهيد؛ مما زاد من ألمي وحزني لأن عملي الجديد لم يغير من واقع حياة أسرتي نحو الأفضل، وفي يوم من الأيام قرأت إعلاناً في الصحف عن وجود أماكن عمل بأجور ممتازة في ليبيا؛ فسافرت وأقمت هناك ستة شهور، وتركت

أسرتي في مخيم جنين.
وقد واجه والد محمود طوالبه المزيد من الصعوبات في رحلة الشقاء والبحث عن العمل. ويضيف: عملت في عدة مهن، لكن الراتب لم يكن مناسبا؛ فحزمت حقائبي وعدت لأسرتي وأقمت معها.. خلال ذلك وفي عام ١٩٧٩ رزقت بإبني محمود، إلا أن الظروف لم تتغير وحياتنا ازدادت شقاء... وفي عام ١٩٨١ رحلت مع زوجتي وأطفالي للأردن حيث أمضيت هناك عاما كاملا في عمان، ولأن وضعنا لم يتحسن فقد عدنا للمخيم؛ وبدأت بالعمل في عدة ورشات في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، وصممت على أن ينال أبنائي قسطا وافرا من التعليم لأعوضهم عما حرمت منه، وفرحت كثيرا عندما شاهدت محمد ومحمود يدرسون بجد واجتهاد، وكنت أطلب من محمود الحفاظ على دراسته ليصبح طبيبا أو مهندسا، فكان يرد علي بالقول: أريد أن أكبر لأصبح مقاتلا لتحرير أرضنا وشعبنا... ومنذ صغره تميز محمود عن أقرانه بأخلاقه العالية، وحسن المعشر... فحظي بمحبة الصغير والكبير وكل من عرفه.
ويواصل والد محمود: منذ كان صغيرا عرف محمود الطريق إلى اللّه، فكان لا يصلي إلا في المسجد، ويحب قراءة القرآن وحفظه، وقد حزنت كثيرا عندما صمم على ترك المدرسة والالتحاق بالعمل وذلك لمساعدتي في إعالة الأسرة.. وقد طلبت منه عدة مرات التمسك بالتعليم إلا أنه تأثر كثيرا بما كنا نعايشه من هموم ومشاكل وحياة بائسة.. وقد أصر محمود على مشاطرتي وشقيقه محمد المسؤولية، فعمل في عدة أعمال، وكان يساهم، مثلي تماما، في تأثيث البيت وتوفير مستلزمات أشقائه.. وكان لا يبخل علينا بشيء، بل يعمل ويسلم والدته كل قرش ويرفض أن يحتفظ بأية مبالغ لنفسه، وكان يطلب من والدته الاستجابة لطلبات أشقائه.
ويتحدث والد محمود عن علاقته بولده فيقول: كانت علاقتي بمحمود مميزة.. فكان نعم الابن المخلص الحنون الذي لم يشكُ ولم يتألم يوما، بل كان دائم الحلم باليوم الذي ترتاح فيه أسرتنا من المعاناة، وعندما كنت أحدثه عن أرضنا وبيتنا المغتصب ومجازر العدو التي ارتكبها عام النكبة كان يغضب ويتأثر كثيرا ويقول: المجزرة المستمرة ستتوقف، وسنحرر كل ذرة من ترابنا...
كذلك فقد كان محمود من أوائل شباب الدعوة الإسلامية الذين أخذوا على عاتقهم نشر الإسلام بروحه السمحة في أوساط الشباب، وعندما اندلعت الانتفاضة الأولى والثانية شارك محمود شعبه في مسيرة الجهاد، وعندما علمتُ أنه مطلوب لقوات الاحتلال طلبت منه الحذر، فرد عليّ قائلا: كل فلسطيني مطلوب للعدو وعلينا أن نقاتل ونجاهد ونقاوم، واللّه معنا ولن يضن علينا بفضله، إننا طلاب شهادة قبل أن نكون طلاب نصر... وعندما لمست روح الإصرار والتحدي لديه تركته ولم أراجعه مرة أخرى.. وكان قلبي ولساني يدعوان له بالسلامة والتوفيق والنصر.

لقد كان محمود دائم الحديث عن الشهادة ويتلو علينا السور القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على الجهاد وتبرز مكرمة الشهيد ومنزلته الكبرى، وقد سمعته عدة مرات يدعو اللّه أن يرزقه الشهادة في سبيل اللّه... لقد كان ابني تقيا، ورعا، زاهدا في الدنيا وزينتها، وقد كان يوزع المواد التموينية على الجميع وينسى بيته، وعندما يحضر رفاقه بعض المساعدات لأسرته كان يرفضها رغم أن وضع الأسرة لا يختلف عن وضع بقية الأسر إن لم يكن أسوأ، ورغم الحاجة الماسة لأسرته فقد كان يحملها ويوزعها على المحتاجين.

ويواصل والد محمود طوالبه الحديث عن ابنه الشهيد محمود إنسانا ومجاهدا فيقول: برز حب محمود لشعبه وإيمانه بقضيته وبالجهاد حينما قام بإرسال أخيه مراد لتنفيذ عملية استشهادية، وعندما سألته: كيف ترسل أخاك؟! خاطبني قائلا: أخي ككل أبناء فلسطين، هو ليس أفضلهم، لكنه واحد منهم، ولقد استجبت له حينما طلب الشهادة ورغب في الجنة، حيث انطلق بعد أن ودعني ولكن مشيئة اللّه كانت أن يكتشف أمره ويعتقل في حيفا.

وعن تجربة اعتقال محمود يقول والده: بعد أسبوع من المقاومة داهمت قوات الاحتلال المنزل الذي كنا نقيم فيه، فاعتقلوني مع جميع الشبان المتواجدين في المنزل، واقتادوني إلى منطقة الساحة وعندما عرفوا شخصيتي بدأ أحدهم بالصراخ: إنه والد طوالبه... فغضب أحدهم ووضع سلاحه في رأسي وهو يقول: ستموت كما يقتل ابنك الإسرائيليين... إلا أن أحد الجنود أمسك به وأبعده عني.. وقال له بالعبرية: لا تطلق النار فكل الاحترام لهذا الشخص. وهنا قام الجنود بتفتيشي ثم قيدوني واقتادوني إلى مركز الإدارة المدنية في سالم؛ وهناك نقلت لقسم التحقيق فقابلت عدداً من ضباط المخابرات الذين استجوبوني بشكل مهين حول محمود ونشاطاته، وقد قاموا بحرماني من الطعام والنوم.

بعد يومين طلبني ضابط المخابرات وقال لي: إبنك محمود قتل... قتله الجيش في المخيم!!... فأدركت عندها أنها كذبة من كذباتهم... يحاولون بها خداعي، فتمالكت أعصابي ولم أهتم بما يقوله لي... فغضب الجندي وصرخ: أليس محمود ابنك؟ فقلت: نعم.. قال: كيف تنجب قاتلاً مثله؟... فرددت: اللّه أراد ذلك له ولي!!... فقال: صحيح اللّه أراد... لكن أنت من رباه على حب قتلِ اليهود... أحب أن أبشرك ،قال الجندي، بأن محمود مات... محمود لم يعد موجوداً... فقلت له ببرود أعصاب: إذا كان محمود قد استشهد فاللّه أحق به وهو سيرحمه... عندها غضب الجندي وشتمني، وهددني بقتل جميع أفراد أسرتي... ولم يكن منهم إلا أن نقلوني إلى أقبية التحقيق في سجن عوفرة، وقد أمضيت ١٩ يوما معتقلا في ظروف صعبة، فالحياة في السجن قاسية، وزادها قسوة أنهم وضعونا في بركسات زينكو، ومنعونا

من الاستحمام، وعاملونا بوحشية، فضلا عن وجبات الطعام السيئة التي قدمت لنا، والتي كانت عبارة عن نصف حبة بندورة وقطعه من الخبز الجاف لا تكفي لشخص واحد، فكيف بهم وهم يطلبون منا قسمتها على أربعة أشخاص؟!... هذا إضافة إلى عزلنا عن المحيط الخارجي، ومنعنا من مقابلة الصليب الأحمر أو الالتقاء بالمحامين أو بأسرنا.

وحول استشهاد محمود يتحدث والده بألم: لقد قاد محمود المعركة البطولية في مخيم جنين واستبسل في المقاومة والتصدي للغزاة، وقد شاهدته لآخر مرة يوم الاثنين (اليوم السادس للمعركة) وذلك عندما اشتد القصف، وقد شعرت بقلق شديد على ابني؛ فخرجت لمعرفة أخباره وبعد بحث استمر لعدة ساعات شاهدته في حي جورة الذهب، وقد كان يرتدي زيا عسكريا؛ ويعتمر خوذة؛ ووضع على جسده حزاما ناسفا وبيده سلاحه.. وقد أقبل عليّ فقبلني وقبل يدي وسألني عن زوجته وأطفاله؛ ثم جلس معي لمدة خمس دقائق فقط، طلب مني خلالها الدعاء له.. فكتمت قلقي وخوفي حتى لا أوثر على معنوياته ودعوت له.

ويتحدث والد محمود عن مشاركة ابنه في جميع معارك المخيم وقتاله ببسالة ويواصل القول: (شاهدته دوما يحمل سلاحه ويقاتل طلبا للشهادة، وفي الاجتياح الأخير مرّ بالقرب من المنزل الذي كنا نقيم فيه بعد تعرض منزلنا للعدوان والقصف، حينها أسرعت نحوه وعانقته وقبلته، وقد كان ذلك في اليوم الثاني للمعركة، حيث طلبت منه الحذر، فشد على يدي وقال لي (إن اللّه معنا فارضَ عني يا والدي؛ وادعُ لي بالنصر أو الشهادة...) فضممته لصدري؛ وقلت له: (اللّه يرضى عليك ويحميك) وانطلق كالريح.. حيث شاهدته يتجول من موقع لآخر يتفقد المقاتلين ويوفر مستلزماتهم من سلاح وذخيرة وتموين. وقد أبلغنا رفاق محمود أنه خلال المعركة كان يُكبّر بشكل دائم، ويحثّ المقاتلين على قائلا لهم: (تقدموا يا إخوتي؛ فمفاتيح الجنة بأيديكم).

ويتحدث والد محمود كيف أنه انتقل من بيته إلى المخيم رغم القصف وذلك للتحقق مما سمعه من نبأ استشهاد محمود فيقول: رغم الظروف الصعبة والحصار والحظر والقصف إلا أنني حضرت للمخيم حيث علمت باستشهاده، وقد بدأنا نقلق قلقا من نوع آخر... إذ بدأنا نقلق على مصير جثته الطاهرة، وقد عثر أبناء المخيم على جثة محمود أشلاء ممزقه تحت أنقاض أحد المنازل في جورة الذهب، كنت اقف إلى جوار طواقم البحث والإغاثة أثناء إخراج الجثة، لقد شعرت حينها بمدى حبي لابني الذي آثر الآخرة على الأولى... لقد شعرت أثناء إخراج الجثة بأن محمود ينظر إلى ويحدق بي... وبصراحة كنت قد دعوت اللّه أن يرزقه عمرا مديدا ليواصل جهاده ضد الاحتلال، لكن إرادة اللّه شاءت... ونعم الإرادة إرادة اللّه.

ويواصل: حزنت على محمود لكنني لم أبكِ ولم أجزع... بل استقبلت النبأ بالقول «لا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم» اللهم ارحمه، وتقبل شهادته، واجعله لنا شفيعا يوم القيامة... وقد كان أول شيء فعلته هو أنني عانقت طفليه، وقلت في نفسي: لقد كانت الشهادة بالنسبة له أمنية حققها اللّه له... اللهم تقبل منه الشهادة، وتقبل منه صالح العمل... اللهم إنني قد رضيت عن محمود فارضَ اللهم عنه، وهو من لقن قساة القلوب دروسا لن ينسوها... اللهم إنا نعاهدك أن نمضي على دروبهم شهداء.

شهادة الشقيق الأكبر

يبلغ محمد طوالبه الثامنة والعشرين من العمر، وهو الشقيق الأكبر لمحمود، متزوج ويقيم مع عائلته في مخيم جنين، وقد ساهم منذ الصغر مع والده في تربية أشقائه، وقد درس حتى الصف الثاني الإعدادي، إلا أنه ترك المدرسة ليعيل أسرته. حيث يقول: عشنا حياة بسيطة في المخيم وفي ظل معاناة هائلة، وقد عملنا أنا و محمود في حسبة جنين حيث لم يتجاوز محمود حينها الثانية عشرة من العمر، وقد كنت يومها في السادسة عشرة، أما والدنا فكان يعمل في تجارة الخضار..

ويواصل: لقد كانت حياة المخيم يومها قاسية، وكانت الظروف المعيشية متدنية بشكل عام، وغالبا ما كان والدي يعاني من الخسارة بسبب ركود الحال... يومها كنا نسكن في حارة الحواشين، وقد تميز محمود يومها بتطلعاته الطموحة، وقد تمتع بأخلاق عالية، كان مراعيا للآداب العامة في كل شأن من شؤونه، سواء في عمله، أو ملبسه أو سلوكه... كان يحب التعامل مع من كان أكبر منه سنا، ليتعلم ويستفيد منهم في حياته وسلوكه.

وحول علاقته بمحمود يضيف: لم نكن مجرد إخوة، بل أصدقاء كذلك، كنا نعمل، ندرس نلعب معا... وكثيرا ما كنا نشتري هدايا لشقيقاتنا نتقاسم ثمنها معا، وذلك لندخل الفرحة لقلوب الصغار؛ ونعوضهم عما حرمتنا منه الحياة وظروف القهر والتشرد والاحتلال. أما عن الوضع التعليمي لمحمود في المدرسة فقد كان جيدا بشكل عام، لكنه ترك الدراسة في الصف الثالث الإعدادي، وبدأ رحلة الشقاء والمعاناة في مجال القصارة في داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨.

لقد تعددت هوايات محمود، يواصل أخوه محمد، فمن صيد الطيور والحيوانات البرية، إلى تصنيع المصائد، ثم قام بعمل خرطوش لا زلنا نحتفظ به حتى اليوم!!.

أما عن علاقته الأسرية فقد كانت قائمة على الود والمحبة، حيث تميز بقلبه الكبير، وبحنوه على الضعفاء والمحرومين، وقد كان يحب مساعدة الآخرين ولو على حساب حاجاته ومتطلباته، ولدى حصوله على راتبه كان يسأل، على الفور، عن نواقص

ولوازم البيت ويساهم في توفيرها.
وخلال عمله في ورشة القصارة في الناصرة والعفولة لدى مقاول فلسطيني حرص محمود على أن يبث، من خلال عمله، روح الوعي بالإسلام بين رفاقه في العمل، وإخراجهم من ظلمة الضلال إلى نور الهداية والإسلام.
وعن أولى مشاركاته في العمل الوطني يتحدث أخوه محمد: عندما اندلعت الانتفاضة الأولى كان عمر محمود ٨ سنوات، ومع ذلك فقد شارك، ككل فلسطيني، في المواجهات والمسيرات والفعاليات، وتعرض للاعتقال في سن ١٢ سنة خلال مظاهرات طلابية، فبينما كان محمود يتصدى لقوات الاحتلال بالحجارة اعتقله الجنود المحتلون، حيث أمضى فترة في السجن، حيث أثرت هذه الأحداث على شخصيته كثيرا، فازدادت رغبته في محاربة القتلة المجرمين.

الداعية المجاهد

أما عن رحلته الدعوية فيتحدث محمد عن بعض أبعادها: في وقت من الأوقات وجد محمود لديه ميلا لأن يصبح داعية لهذا الدين العظيم، فصار يركز على عنصر الشباب الذين لا يصلون، فأخذ يزورهم في بيوتهم، ويأخذ بأيديهم إلى طريق النور، وكان سلاحه في ذلك الوعي، والكلمة الطيبة، والشريط النافع المفيد، وإذا ما سمع عن شخص ما حديثا يسيء التصرف توجه إليه فورا؛ وخاطبه بتلطف حتى يقنعه بالعدول عن سبيل السوء، لم يكن يستهزئ بأحد، أو يقلل من قدر إنسان.. فتمكن بهذه الطريقة من الأخذ بأيدي الكثيرين من الشبان وإعادتهم لطريق الإسلام والخير والصلاح، ومن اللطائف التي تذكرنا بمحمود أن كل أم كانت تواجه مشكلة مع أحد أبنائها، بسبب من طيش أو جهل، كانت تتوجه للشيخ محمود لكي يساعدها في حلّ مشكلتها!. من هنا فقد أقام محمود علاقات مميزة مع عدد كبير من الشبان المناضلين والمجاهدين، والذين استشهد بعضهم فيما بعد خلال أعمال المقاومة، ومن أصدقائه الذين اختارهم اللّه شهداء إلى جواره كل من الشهداء: أسامة تركمان، وإياد المصري، وعبد الرحيم فرج، واشرف أبو الهيجاء، وشادي نوباني، ومهند أبو شادوف، وطه زبيدي، وأسامة أبو الهيجاء. أعجبه فيهم قوتهم، وصلابتهم، وصرامتم في مواجهة الظلم... لقد كان محمود مجاهدا صلبا، لم يكن يعتقد بـ «المستحيل» أو «غير الممكن» لقد شطب من قاموس حياته كلمات عديدة مثل: «الخوف» «الجبن» «الهروب» وآمن بمنهج اللّه في الحياة، وكان رائده في ذلك قوله عز وجل: {إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبت أقدامكم}.. خلال مطاردته كثر الحديث عن تهديدات العدو باغتياله فكان الشبان والأهالي يخافون

عليه كثيرا، ولكن عندما كان يتحدث أحدهم عن الموت كان محمود يغضب ويقول: لا مجال للهرب!! فهو قضاء اللّه المحتوم، وقدره الذي لا يؤخر، كلنا سنموت؛ سواء أكنا في مغارة أو سيارة... الخ فهذا قدر اللّه.

محمود كما عرفته شقيقته الكبرى

أما الشقيقة الكبرى ظريفة فتروي ذكرياتها فتقول: كانت حياتنا صعبه وأبي غير قادر على توفير جميع مستلزماتنا فضحى أخي الأكبر محمد بمستقبله وترك المدرسة وبدأ بالعمل، فافتتح بسطة صغيرة، ثم محلا متواضعا، وعندما انضم محمود للعمل مع أخيه محمد فقد حافظ على رابطة الاخوة الصادقة، حتى أنهما كان يضعان نقودهما معا ولا تشعر بفرق بين فلوس محمد ومحمود، فجيبهما واحد، وكانا يدا واحدة في السراء والضراء.. أما محمود فقد تميز منذ الصغر بالشجاعة وقوة الشخصية، والإيثار، وحب عمل الخير، فساهم في تزويج أخيه محمد وفرح كثيرا لزفاف شقيقه الأكبر.

وعندما تزوجت، تواصل الشقيقة الكبرى لمحمود، كان عمر محمود ١٦ عاما، فبكى بشدة لمغادرتي البيت، وأصر على مرافقتي، حيث جلس بقربي، ولم يتمكن من إخفاء حزنه، وقد شعرت بألم شديد حيث رأيته وعيناه لا تتوقفان عن النظر إلي وكأنما تودعاني بصمت، وقد حافظ محمود على علاقته المميزة بي بعد زواجي، فكان يتردد علي دوما، ويتحفنا بأحاديثه ومواعظه التي تركت أثرا كبيرا فينا.. وكان إذا أتى إلينا تجمع أهل زوجي والأصدقاء للاستماع إليه، فقد تميز رحمه اللّه بنهج محبب وفريد في الدعوة إلى اللّه، وقد زرع فينا حب الإيمان والجهاد، وكأنه يستحضر اللحظات التي يفارقنا فيها فلا يترك لنا إلا الحزن!!. لقد كان محمود شهما، ونموذجا نادرا للتضحية والإيثار، كان يرفض استقبال أية مساعدات، وعندما يصل لبيته أية تبرعات كان يحملها ويوزعها على الفقراء، بل إنه تبنى عددا من الأيتام حرص على دفع راتب شهري لهم، إضافة لكسوتهم ورعايتهم.. كل ذلك دون علم أحد حتى والدتي، وقد سمعنا بذلك بعد استشهاده عندما حضرت الأرامل وبعض الفقيرات من نساء المخيم وأبلغننا بما كان يقدمه محمود لهن من مساعدات، وقد علمنا أنه كان يوزع نصف دخله الشهري على الفقراء... وإننا نعاهد محمود أن نصون وصيته، وأن نعتني بكل فقير أو شخص كان يتلقى مساعدة من محمود، لن ننسى أحبة محمود، وسنتابع تنفيذ وصاياه بإذن اللّه.

وحول الأيام الأخيرة في حياة محمود قبل أن يلقى ربه شهيدا... تتحدث شقيقته: عقب كل اجتياح كنت أحضر لرؤيته والاطمئنان عليه، وعندما أشاهده كنت أبكي، فكان يغضب ويطلب مني عدم البكاء، ويقول لي: توكلي على اللّه، وإن كنت تحبينني

فتمني لي الشهادة في ساحة المعركة وأنا أقاتلهم وجها لوجه.. فكنت أدعو له وأتمنى أن يمنحه اللّه الشهادة إن أراد، أو أن يمنحه طول العمر حتى يحقق حلمه في أن يرى فلسطين حرة. وفي الاجتياح الأخير أصيب محمود برصاص العدو الغادر، فأحضره الشباب إلى مكان قريب من منزلي، وعندما شاهدته مصابا ذعرت وخفت، لكنه لم يكن متأثرا، بل إنه أخذ يضحك، وعندما سألته عن حالته.. سلّم علي وطلب مني أن أهدأ، وألا أستسلم للخوف.. وقال: إنها لسعة نحله عالجتها بسرعة... إن رصاصهم لا حيلة له مع من نذر نفسه للشهادة!. ثم صافحني وانطلق بسرعة الريح مقاتلا إلى أن استشهد. وقد أبلغتني النساء في حي جورة الذهب أن محمود اعتاد، خلال المعركة، على تفقد الأطفال والاهتمام بهم، فكان يوزع الحلوى عليهم، ويحثهم على الصمود وعدم الخوف. وخلال القصف العشوائي الذي تعرض له المخيم قام محمود بمساعدة الأهالي في عمليات إخلاء المناطق الخطيرة، وفي بعض الأحيان كانت بعض الصواريخ تنفجر بالقرب منه، لم يخف... ولم ترتعد أوصاله... لم يتراجع أبدا... بل كان مصدرا لرفع الروح المعنوية للمخيم بأسره. وقد حرص على المشاركة في كل معركة وفي كل قتال، وقد تمكن من قتل عدد من الجنود، وفي مرة من المرات قام وزملاؤه بفك الحصار عن المقاتلين المحاصرين وأنقذ حياتهم.

وعن أحداث الاجتياح الأخير تتحدث الشقيقة الكبرى لمحمود: كان محمود قد حضر إلى بيتي قبل الاجتياح الأخير بيوم، وقد نام لفترة بسيطة، فجلست بالقرب منه أتأمله وأدعو اللّه أن يحميه!!.. وعندما استيقظ طلب مني أن أصنع له كأسا من البابونج، شربه ثم قام فتوضأ وودعني وقال لي: رددي دوما قوله تعالى {نصر من اللّه وفتح قريب} ولم يتكلم أكثر من ذلك!!.

وعن استشهاده تقول: اللّه يرضى عليه، ومبروك عليه الشهادة والحمد للّه على هذه النعمة والمكرمة فقد جاهد لينالها، ولم يكن ينام أو يهدأ (كما كان يردد دائما) حتى يدركها... وقد أدركها بفضل اللّه. وأنا أقول: الأطهار من أمثال محمود يستحقون هذه النهاية الكريمة، إنها الاستثمار الأمثل لحياة أناس معطائين أمثالهم!!.

الشقيقة ميسون؛ تحب و... تتذكر!!

شخص آخر أحب محمود وكان قريبا منه... إنها ميسون شقيقته التي تكبره بخمس سنوات؛ وقد كانت علاقته بها متميزة، حيث تجاوزت تلك العلاقة ما يربط عادة بين الشقيق وشقيقته، فمحمود في النهاية لم يكن كأي شقيق... وعليه فقد تعامل محمود مع أشقائه بشكل عام وميسون بشكل خاص،عاملهم وكأنهم أصدقاؤه قبل أن يكونوا أشقاءه...

وعن محمود تتحدث ميسون: كان محمود غاليا عليّ... كنت أرى فيه الحياة حين

تصفو وتحلو، كان بالنسبة لي مثالا ونموذجا وقدوة للرجل الصالح وللأخ المحبوب... بالإضافة إلى ذلك فقد كان لا ينقطع عن زيارتي والاطمئنان علي وعلى أسرتي، وتقديم الهدايا لي...

وتواصل حديثها: منذ صغره كان محمود حنونا؛ طيبا... أحب كل فرد من الأسرة بطريقة خاصة لم يكن يشرك غيره بها... كان لكل منا مكان خاص في قلبه... أتذكر طفولته التي كانت هادئة، وتصرفاته التي كانت دوما أكبر من سنه، وعقله الذي كان يزن عقول عدد من الرجال... حتى نال محبة وتقدير الجميع..

ورغم طيب معشره؛ ودماثة خلقه فقد بدأ في الصف الثاني الإعدادي ينقطع عن المدرسة ويتوجه إلى عمارة قريبة برفقة أحد أصدقائه، حيث كانا يقضيان وقتا طويلا في تصنيع المواسير وتحويلها إلى أدوات شبيهة بالبنادق، وعندما كنت أسأله عن الهدف من وراء ذلك كله كان يرد علي بالقول: يجب علينا مقاومة العدو، وبكل الأدوات المتاحة لنا... لقد كان، رحمه اللّه، حريصاً على التزود بالمعلومات حول تصنيع الأسلحة حتى أصبح من أشهر مصنعيها في المخيم. وفي إحدى المرات تأخر محمود كثيرا في العودة إلى المنزل، وعندما سألته عن السبب عبر عن سعادته وهو يقول: تمكنت من تصنيع عبوات ومواسير ناسفة صغيرة لقتال العدو... لقد اقتربت ساعة الجهاد والنصر.

وحول رقة مشاعر محمود تتذكر أخته ميسون وتقول: في إحدى المرات وعندما كان محمود في الصف الثاني الإعدادي عثرتُ على عصفور فاحتفظتُ به وقام محمود برعايته، وعندما مات العصفور أصر محمود على دفنه، وقد زينا القبر بالورود، وقد حزن عليه محمود حزنا شديدا، ووزع حلوى عن روحه... إنني أتذكر ذلك الموقف الطفولي من محمود لكنه يعكس طهارة روحه ورقتها... تقول ميسون!!..

وفي عام ١٩٩٠ تزوجت، تقول ميسون، فحزن محمود على فراقي، وأصر على مرافقتي لمنزل زوجي، وفي يوم الزفاف حضر لبيتي وقدم لي هدية قيمة، ثم جلس بجانبي باكيا على فراقنا. وحافظ محمود على صلة قوية معي حتى بعد أن تزوجت، وحرص على زيارتي بشكل دائم، وكان لدى عودته من العمل في الداخل يزورنا ويتفقد أطفالي، ويحضر لهم الهدايا، ويأخذهم للاستوديو، ويلتقط لهم الصور... كما أنه لم يبخل يوما علي بشيء، فكان يقدم لي النقود بشكل دائم، إذ كان حريصا على صلة الرحم، يتصرف بتفتح بصيرة، وإذا ما غضب من أحد كان يسامحه. بعد عدة سنوات بدأنا ببناء بيتنا الخاص، تواصل ميسون شقيقة محمود، فلم يتأخر محمود عن واجبه تجاهنا، ورغم تعبه في العمل فقد كان يزور بيتنا ويساعد زوجي في إتمام البناء.

وكان لا يهدأ لمحمود بال إذا علم بوجود مشكلة ما لدى أي شخص قريب أو بعيد

إلى أن يحلها أو يساهم في حلها، وقد تدخل عدة مرات في حل مشاكل عائلية معقدة، وقد نجح في إصلاح ذات البين في مشاكل عجز عنها من هو أكبر منه سنا، مما اكسبه حب واحترام وتقدير الجميع... وفي إحدى المرات وقع خلاف بين سيدة وزوجها في المخيم فتعرضت من قبله للاعتداء بالضرب، حيث أصيبت بجرح، فنقلها محمود للمستشفى على الرغم من كونه مطلوبا.. ثم قام بالتدخل لدى زوجها لحل المشكلة، وكلما شاهدت تلك السيدة لا تتوقف عن الثناء والدعاء لمحمود الذي أنهى المشاكل التي عايشتها لعدة سنوات. كذلك فقد حرص محمود على صلة الرحم؛ حتى وهو مطارد، فكان يعطينا جزءا من وقته، وقد كانت علاقته مع شقيقاته مميزة وكذلك كانت مع أنسبائه.

وتتذكر ميسون أن محمود قد تبقى له مبلغ من المال في ذمة صاحب العمل الذي كان يعمل عنده، وعندما اتصل به لطلب حقه لاستكمال متطلبات الزواج ابلغه صاحب العمل أنه يعاني من مشاكل مالية، وطلب منه تأجيل الموعد، فما كان من محمود إلا أن سامحه بالمبلغ؛ رغم حاجته الماسة له.

وحول صفاته الأخلاقية تتحدث ميسون عن شقيقها: كان شقيقي متدينا جدا، وملتزماً جدا بتعاليم الإسلام، كان شخصا محبوبا ، وقد كانت قدوته في ذلك كله شخص النبي صلى اللّه عليه وسلم، فكان لا يأكل أو يشرب أو ينام إلا وفق السنة النبوية الشريفة، فعاش زاهدا يبذل دنياه في سبيل آخرته، ويبذل الغالي والرخيص في سبيل شعبه وبلده، كان لا يتردد عن القيام بعمل الخير؛ حتى لو كان ذلك على حساب حياته ومتطلباته الشخصية، وقد كان محمود داعيا واعيا للإسلام، فكان يوجه الناس للتمسك بالصلاة والعبادات، وقد افتتح مكتبة في مسجد المخيم اشترى جميع كتبها الدينية، ثم شارك مع رجال الدعوة في التنقل بين عدة مدن وقرى، وترك عمله الخاص لنشر دعوة الإسلام.

أما عن الأيام الأخيرة في حياة محمود فتتحدث ميسون قائلة: في المرة الأخيرة التي شاهدته فيها كانت وقت الاجتياح الأخير لجنين، لقد كان محمود مغرما بالجهاد في سبيل اللّه وقد ملك عليه العمل الجهادي عقله وقلبه، وفي ذلك اليوم كانت ابنته معي فلم يتمكن من عناقها، بل نظر إلينا بحب وحنان، وانطلق مسرعا لا يلوي على شيء، ذهب باتجاه المخيم ليلتحق برفاقه، وليلتحم مع جنود العدو في معركة كانت الأمنية الذي طالما انتظر تحققها... فخلال الفترة الماضية لم يتوقف لسانه عن الحديث عن المعركة، ومواجهة العدو، وحب الجهاد والاستشهاد، وفي إحدى المرات حضر إلينا بعد منتصف الليل فأمضى في بيتنا ربع ساعة فقط تحدث فيها عن معاني الشهادة والجنة، وعندما طلبنا منه الحذر ردد على مسامعنا: (روحي بيد ربي... فماذا يفعل عدوي بي... لن أختبئ، ولن أهرب).. وقد طبق محمود فلسفته

تلك خلال الاجتياحات السبعة التي تعرض لها المخيم، فلم يجزع، ولم يهرب، لم يخرج من المخيم بل بقي فيه، بقي مقاتلا وفي مقدمة الصفوف.
أما عن استشهاده فتقول أخته ميسون: عندما بلغني نبأ استشهاده تمالكت أعصابي، إذ تذكرت، على الفور، أخي محمود وهو يطلب مني أن أدعو له اللّه أن يتقبله شهيدا فيمن عنده، وقد كانت وصيته لي هي عدم البكاء عليه... فقلت ساعة استشهاده: الحمد اللّه رب العالمين... لقد طلبتها يا محمود وسعيت لها فنلتها... ورزقك اللّه إياها... وبعد استشهاد محمود أصبحت صورته لا تفارقني، وحلمت قبل أيام بمحمود يأتي إلى بيتي فعانقني وقال لي: هل شاهدت ما حدث في المخيم؟؟ لقد دمره الصهاينة... وأخذ يبكي على المخيم وينتحب. فقلت له: لا تحزن يا أخي، فالمخيم له رب يحميه، ورجال تفتديه، وسيعود المخيم إن شاء اللّه أفضل مما كان.. وعندما استيقظت كنت أعلم أن محمود سيبقى بروحه بيننا على الدوام...

الشقيق علاء: كانت أخلاقه طيبة وروحه طاهرة

يبلغ علاء السابعة عشرة من العمر، وقد عايش محمود منذ الصغر وكانت علاقتهما متميزة، حيث يصفها بأنها «كانت علاقة أخوية رائعة».
أما عن علاقة محمود بأبناء شعبه فيصفها بأنها «كانت مثالية» و «تعبر عن نفس طيبة وروح طاهرة» مضيفا: «لقد كانت روح محمود تشبه أرواح الأطفال في طهرها» فعندما كان يسير أخي في الشارع وهو مطارد لقوات الاحتلال كان الأطفال يسيرون إلى جواره ويتبادلون معه أطراف الحديث، أو يسلمون عليه... وعندما كان محمود يسير في المخيم كان الجميع يتسابق لدعوته لبيته، وخصوصا في أيام الأعياد. وكثيرا ما كان الأطفال يهتفون باسمه تعبيراً عن محبتهم له، فكان يجلس معهم ويوزع عليهم الحلوى أو الأشرطة الدينية، أو يحثهم على الصلاة وكان يحدثهم عن صدق الإيمان باللّه ومآثر الجهاد وفضله، كان يحاول أن يوصل إليهم فكرة بسيطة وهي أن (مقاومة الاحتلال جزء من عقيدة كل إنسان حر).
وعن الأثر الذي تركه محمود في نفوس أبناء أسرته وأبناء شعبه يعبر علاء بكلمات دافئة: (لن أنسى شقيقي الشهيد محمود الذي دافع عن شعبه، وضحى بروحه وماله وحياته في سبيل فلسطين، وسنمضي على دربه، بإذن اللّه، وسنعلم كل الطغاة والظالمين درسا... إن محمود حي بيننا ككل شهيد، تذكرنا به كل ذرة تراب في المخيم... حي بذكريات جهاده ومقاومته وإرادته وبطولته... إن الطغاة لا يعرفون أن شهداءنا يجددون حياتهم باستمرار... إنهم مستمرون فينا لأن أعمالهم وأرواحهم تذكرنا دائما بالواجب الذي علينا أن نقوم به؛ لكي نقتلع الطغيان من أرضنا.

شهادة شقيقته

عندما هاجمت قوات الاحتلال مخيم جنين في ٢٨-٢-٢٠٠٢ كانت زوجة محمود في أيام حملها الثاني الأخيرة وقد داهمتها آلام المخاض في ٤-٣ خلال حظر التجول والاجتياح ولم أتمكن من نقلها للمستشفى فتحدثنا لمحمود بالهاتف النقال واطمأن عليها ولكنه لم يتحدث سوى للحظات لأنه كان في قلب المعركة زوجته تكاد تنجب مولوده الثاني وهو يقاتل في سبيل اللّه والشهادة، وبعد طول انتظار وفشل كافة المحاولات لنقلها للمستشفى بسبب العدوان وإطلاق النار الصهيوني أنجبت زوجته طفلا أسمته عبد اللّه بناء على طلب وتوصية محمود فاتصلت به وأبلغته عبر الهاتف ففرح كثيراً وأخذ يكبر فاجتمع المقاتلون حوله وعندما علموا بالنبأ فرحوا كثيراً وقدموا له التهنئة واشترى حلوى لهم رغم القتال والمعركة العنيفة ووزع عليهم احتفاءً بالمجاهد الصغير عبد اللّه كما قرر تسميته رافضا الاستجابة لطلب زوجته بإطلاق اسم مراد عليه، وقد مازحه رفاقه المقاتلون قائلين محمود طوالبه ولد في القصف والمعركة وخرج يقول كواع كواع وليس واء واء كباقي الأطفال!!.

وحزنت كثيراً أنا وزوجته عندما لم يتمكن محمود من العودة للمنزل لمشاهدة زوجته وطفله فحملت الولد متحدية كل الظروف وتسللت من حارة لأخرى ومن بيت لبيت رغم القصف والحصار بحثا عن محمود حتى التقيته في حي الدمج فاندفع نحوي سعيدا لمشاهدة عبد اللّه فقبله وسألني هل لحستموه تمراً وفق السنة النبوية الشريفة فقلت لا فطلب من إحدى نساء الحي حبة تمر وقام بذلك ثم قام بترديد الأذان في أذنه اليمنى وأقام الصلاة في اليسرى وهو يدعو اللّه أن يحمي عبد اللّه ويمده بالإيمان ليواصل مسيرته.

بعد انسحاب العدو وانتهاء الاجتياح عاد محمود للمنزل والفرحة تملأ قلبه وبارك لزوجته وهنأها بمولودها موصيا إياها بتربيته على السنة والجهاد ثم حلق له رأسه على السنة النبوية الشريفة، وقد كانت علاقته بعبد اللّه مميزة حتى أطلق عليه لقب رأس المال ويعني أنه إذا استشهد فإن عبد اللّه سيواصل مشواره وقال لزوجته الخطية برقبتك يجب أن تكبري وتنظمي وتحافظي على راس مالنا عبد اللّه مهما كانت الظروف ليحمل راية الجهاد والمقاومة.

إيمانه وعظمته جعله لا يتورع لحظة عن التضحية بالغالي والنفيس في سبيل القضية والوطن حتى إنه فخخ شقيقه مراد وأرسله لتنفيذ عملية استشهادية فاختار يوم خطبة شقيقيه وقد أخفى عنا الأمر وبعد الخطبة أبلغنا أن مراد اعتقل وكان حزيناً لفشل العملية ولكن عندما سألته: «كيف تقبل تفرط بأخوك» ضحك وقال مثله كمثل جميع شباب فلسطين مجاهد ومناضل يطلب الشهادة التي لا يوجد

شيء يوازيها ولكن قضاء اللّه وقدره.
عندما اعتقلته السلطة الفلسطينية غضبت وحزنت وبكيت فكيف يعتقل الشيخ المجاهد الذي يقاتل من أجل فلسطين وقد شهدت جنين والمخيم مواجهات ومسيرات حاشدة ضد السلطة احتجاجا على اعتقال طوالبه.
في الاجتياح الأخير حضر محمود لبيتنا في ساعة متأخرة وقبلني وودعني وقرأت في عينيه معاني الوداع الأخير فكتمت خوفي وقلقي وأوصيته بنفسه ودعوت اللّه أن يسدد خطاه ويجنبه كل مكروه فغادر وهو يضحك ويقول سنلتقي في الجنة.
في اليوم الثالث من الهجوم الهمجي على المخيم تقدم الجنود باتجاه حي الشلبي في مخيم جنين فأبلغه الأهالي بتحرك المشاة بشكل واسع وسريع، فنصب لهم كمينا قرب دار الشلبي وباغتهم بهجوم سريع، حيث قتل وأصاب عددا منهم.
وبعد أسبوع من تلك المعركة شاهدت محمود في حي الحواشين، وكان قد أطلق لحيته، وقد رأيته يحمل سلاحه الخفيف وتمنطق بحزام ناسف، وحمل حقيبة مملوءة بالمتفجرات، وكان معتمرا خوذة، حيث اقترب مني وسلم علي، وطلب مني إبلاغه عن مكان وجود والدتي فذهب إليها والتقاها، وقد طلب منها أن ترضى عنه، ثم ذهب إلى حارة الدمج فتعرضنا لإطلاق صواريخ في محاولة صهيونية لتوفير دعم لقوات المشاة التي تحاول اقتحام المخيم، فواجههم محمود واشتبك معهم لعدة ساعات ثم انسحب إلى حارة الحواشين.

شهادات من المخيم

ونواصل تقديم الشهادات الحية حول ذلك المارد البطل محمود طوالبه، الذي أعطى الجيل الفلسطيني والعربي والإسلامي نموذجا فذا للصمود الفلسطيني المعاصر... إننا نقدم محمود لا كشخص، بل كهوية تحدت التغييب وقاومت الإمتهان والإذلال...
فمحمود لم يكن وحده، ولم يكن نفسه... محمود هو الإنسان، والمخيم، والأرض، والمقدسات... محمود هو الدم الزكي والمقدسات الطاهرات... محمود هو الحضور المضحي وهو الغياب في نفس الوقت... كان محمود يمثل حضور شعب قرر أن يدافع عن كلمة اللّه، وعن مقدسات الأمة بكل ما يملك من نفس ومال ... وقد مثل محمود في الوقت نفسه غياب أمة تخلت عن الشهادة واختارت أدوار التفرج والمشاهدة... فلو كانت الأمة موجودة فهل كان مقدرا لمحمود ولإخوة محمود أن يحملوا كل هذا القدر من العناء وهل كان مكتوبا عليهم ان يتقدموا بكل هذا القدر من التضحية؟...

شهادة (م.س) من مخيم جنين

ومرة أخرى نتحدث عن شخصية محمود (الشعب والوطن والقضية) وفي ذلك يقول م.س وهو من مخيم جنين: (كان محمود طوالبه شابا شهما لا يترك من جهده جهدا لأجل أن يساعد الآخرين، وخلال العدوان لم يبقَ معنا من المال ما نشتري به حتى ربطة خبز، وعندما علم محمود بذلك غضب مني؛ وسألني: لماذا لم تطلب ما يكفيك ويكفي أسرتك؟ هل نسيت بأننا أهل وإخوة؟!.. وأعطاني يومها مبلغاً من المال؛ فبكيت؛ وعندها أمسك بي من كتفي وقال: لماذا البكاء؟... كلنا عيال اللّه... هو يرزقنا ويتكفل بنا...

شهادة محمد إبراهيم

أما محمد إبراهيم فيتحدث في شهادته عن محمود فيحكي عن نجدته للمعوزين والمحتاجين، فيقول: (بعد الحصار المشدد والمعركة البطولية التي خضناها ضد جيش البغي لم يبقَ معنا نقود لشراء أي من احتياجاتنا، مما دعانا للاستدانة من أحد المحلات، وعندما علم محمود بذلك توجه لصاحب المحل وسدد ديون الجميع!!. لم يكن محمود مقاتلا فحسب، بل كان قبل كل ذلك إنسانا، كان حريصا على كل مقاتل، وكان دائم التأكد بأن كلا منا تتوفر لديه كافة مستلزماته واحتياجاته.

شهادة (م.ن) من مخيم جنين

وعن روح الوئام التي تمتع بها الشهيد محمود يقول.م.ن. ٢٣ عاما من مخيم جنين: كان محمود رحمه اللّه يتمتع بدرجة عالية من الود يحتفظ به لمن هم حوله، مما أعطاه قدرة كبيرة على نسج العلاقات الاجتماعية مع الآخرين، لذا فلم يكن غريبا أن تمتع محمود رحمه اللّه بعلاقات قوية مع كافة القوى السياسية والأجنحة العسكرية الموجودة على الساحة الفلسطينية، وكان صديقا مقرب للشهيد قيس عدوان.

شهادة (ز.خ) أحد نشطاء فتح في المخيم

أما ز.خ وهو أحد نشطاء فتح في المخيم فيتحدث عن شخصية محمود وذلك بالقول:

عندما بدأ محمود النضال كان يوزع الأغراض والمعدات على المقاتلين وهو أول شخص صنع العبوة الناسفة محلية الصنع، وقد استمد معلوماته حول طريقة إعدادها من إمرأة عجوز تجاوزت الثمانين من عمرها كانت تسكن المخيم، وقد كانت تلك العجوز تعمل مع زوجها في محجر، وكان زوجها يحضر (المتفجرات) بنفسه، فتعرف محمود عليها، وتعلم منها طريقة صنع الكحل (كما كانوا يسمونه).

وعن حبه للتضحية والجهاد يواصل ز. خ حديثه حول شخصية محمود: كان محمود

من صنف نادر من البشر، فقد كان شديد الإيمان بربه، محبا للتضحية بنفسه، إلى درجة دفعته إلى التفكير بتنفيذ عملية استشهادية، لكن رفاقه منعوه. إذ اعتقدوا أن مكانه كقائد للمجموعات المجاهدة أهم من تنفيذ عملية استشهادية واحدة مهما كانت أهمية تلك العملية، ومن خلال موقعه ذلك تمكن محمود من توفير كل متطلبات المجاهدين، من متطلبات تربوية، ومن توفير لحاجاتهم الضرورية، فكان إذا توجه إليه الشباب المجاهد بطلب ألف رصاصه، مثلا، كان يجهد نفسه ليوفر لهم عشرة آلاف!! حتى وان كان ذلك على حسابه الخاص.

وعن بعض الجوانب الإنسانية في شخصية محمود يواصل ز.خ حديثه: كان محمود رقيقا، مرهف الحسّ، فإذا ما اغتال الاحتلال شابا كان محمود يبكيه طويلا، ويقول : لم يأتِ الدور عليّ بعد!!... ويبدو أنني سأصبح عجوزا قبل أن استشهد. وهنا أحب أن أؤكد (يواصل ز. خ) على أمر في غاية الأهمية، ألا وهو أن محمود طوالبه، وعبد الكريم عويس، وعلي الصفوري كانوا قد بدأوا بالفعل بتصنيع الهاون والقوا أول قذيفة على مستوطنة قديم. وكان طوالبه رحمه اللّه أول من هاجم قوات الاحتلال برشاشه وحزام ناسف يلتف حول وسطه كان قد أعده لوقت الحاجة إليه، وكان محمود كذلك أول من ابتدع طريقة التفخيخ الجانبي في الجدران، حيث نجح في ذلك وحقق إصابات في جنود العدو، وكان قد استخدم هذا الأسلوب في حارة السمران، عندما صنع عبوة كبيرة وضعها على شجرة، وقام بتفجيرها لدى مرور جنود الاحتلال، فأوقعت بين ٧-٨ جنود بين قتيل وجريح.

شهادة كامل محمد طوالبه

وعن محنته في معركة جنين البطلة، ومحاولة جيش الاحتلال جعله درعا بشرياً يحاولون من خلاله الوصول إلى محمود ... يتحدث كامل محمد طوالبه (٤٣ عاماً) عن معاناته تلك، حيث يروي واقعة دخول الجنود إلى منزله حوالي الساعة الخامسة والنصف فجرا، وذلك بعد أن قامت دبابة صهيونية بقصف الطابق السفلي من المنزل علي الرغم من وجود أولاده الـ ١٣ فيه!، ثم أطلقت مروحية إسرائيلية الصواريخ على المنزل. مضيفا: بعد ذلك اخذوا يقومون بإرهابي من خلال دفعي للاعتقاد بأنهم سيقومون بقتل طفل من أطفالي كل خمس دقائق بدءاً بالأصغر. وتابع إنه اقتيد مع ابنه رواد (١٤ سنة) في حالة من الصدمة إلى منزل في الحي يضم ثلاثة طوابق، وقد تواجد في ذلك المكان سبعة آخرون من سكان المخيم. ويواصل كامل طوالبه شهادته: كان الليل قد هبط، وكنت موثق الأيدي وراء ظهري معصوب العينين. وقد أمرونا بالوقوف أمام النوافذ وقاموا بإطلاق النار من فوق أكتافنا، وقد استمر ذلك لمدة ثلاث ساعات على الأقل. وأضاف: أعتقد أن المقاومين الفلسطينيين كانوا

يعرفون بوجودنا، فأوقفوا نيرانهم. وقد تركنا الجنود المحتلون لننام ووجوهنا إلى الأرض وسط تلال من الحطام وقطع الزجاج.
وأفاد كامل، الذي بدت علي يديه آثار الأغلال، أن الإسرائيليين طلبوا منه في اليوم التالي، وبلغة عربية، الدخول أمامهم إلى منزل ابن عمه محمود طوالبه، المسؤول المحلي لحركة الجهاد الإسلامي ، وعلى ما يبدو فقد كانوا يبحثون عن أدلة تثبت وجود ورشة لتصنيع القنابل. لكنني رفضت الدخول أمامهم ،كما يقول، لأنني كنت خائفاً من أن أصبح هدفاً للرصاص. فقاموا ،على الأثر، بقصف المنزل، ولم أر ابن عمي محمود بعد تلك الواقعة.

المصدر: صحيفة الحياة اللندنية ٢٠٠٢/٥/١

مع الشهادة ... وجها لوجه!!

ويواصل كامل طوالبه شهادته حول الأيام المجيدة التي سطرها مخيم جنين وأبناؤه الأبطال فيقول: هناك شبه يقين بأن محمود قد استشهد في اليوم قبل الأخير من الهجوم على المخيم، فبعدما اشتدت المعركة مع المدافعين المحاصرين في حارة الحواشين، كان محمود يتنقل بين مواقع الخط الأمامي من الجبهة، وعندما أدرك أن ليس أمامه من مفر ، وأن خياراته تنحصر في التسليم المذل أو الشهادة الكريمة اختار محمود الخيار الأخير... وقد رفض الانسحاب من القتال، وقال لزملائه: توكلوا على اللّه... لقد اختارنا اللّه لننوب عن أمة بكاملها في ساعة العسرة... لن نستسلم، ولن نتراجع خطوة إلى الوراء... ولن نشمت أعداء أمتنا بها... هنا وجدنا، وهنا سنقاتل إلى أن نلقى اللّه شهداء!! هذه أمة يعتبر التراجع في دينها جريمة!!...
وقد تحصن محمود في منزل (أبو جواد القاسم)، حيث اشتبك هو ورفاقه عبد الرحيم فرج وشادي نوباني مع قوات المشاة الاحتلالية، وبعد فشل الغزاة في التقدم قام الطيران الصهيوني بقصف الموقع الذي تحصنوا فيه لعدة ساعات.

شهادة ياسين

وعن مذكرات اليوم الأخير من معركة جنين يتحدث ياسين (٣٥ عاما) فيقول: كانت معركة مخيم جنين قوية ومفاجئة، فعلى الرغم من استعداداتنا الكبيرة إلا أن الهجمة على المخيم جاءت بشكل لم نتوقعه من حيث العنف والإجرام؛ اللذان سلطا على المخيم وسكانه، وقد قام المدافعون بتشكيل غرفة عمليات ميدانيه مشتركة لكافة الفصائل، حيث تولت توزيع المجموعات المقاتلة داخل المخيم، وكذلك توزيع العبوات، التي استمر تصنيعها حتى اليوم الثالث من الاجتياح، فكانت هناك ورش

لتصنيع المتفجرات يعمل بها المقاتلون من الحركات الإسلامية والوطنية، وقد عمل أبناء فتح إلى جانب إخوانهم في حركتي الجهاد الإسلامي وحماس جنبا إلى جنب في تصنيع العبوات وتوزيعها، وقد كان الشهيد محمود طوالبه، (رحمه اللّه)، يتولى تصنيع العبوات وزراعتها، وذلك سويا مع أحد قياديي كتائب شهداء الأقصى، وهو الشهيد زياد العامر.

ويواصل ياسين شهادته: عندما اشتد القصف وتزايد خطر القناصة الصهاينة بدأ المدافعون عن المخيم بعمل فتحات في جدران المنازل لاستخدامها للتنقل والمرور من بيت إلى بيت، وكانت البداية في حي الحواشين، فمن الناحية الشرقية الغربية للمخيم أتت المفاجأة التي عكست عظمة شعبنا والتفافه حول أبنائه المدافعين، حيث فتح سكان المخيم وأهاليه بيوتهم أمامنا، وسمحوا لنا بفتح الجدران، وتخريب بعض الأجزاء من منازلهم، كما سمحوا لنا بالتصرف بمنازلهم بحرية تامة ودون ضغط أو خوف، لإدراكهم وقناعتهم التامة أننا كنا نقاتل من أجلهم، ودفاعا عنهم. وقد حرصنا على توفير أماكن آمنة لهم، وكثيرا ما طلبنا منهم الانتقال من بيوتهم إلى اماكن آمنة وبعيدة عن المواجهة، وقد استفدنا من هذه التجربة، حيث وفرت لنا الحماية من الطائرات والقناصة، فكنا نباغت الجنود عن قرب بناء على معلومات مسبقة، كما علمتنا تجربة المواجهة أن طائرات العدو لا تقصف أي منطقة يتواجد فيها جنود احتلاليون.

وفي إحدى الحالات عندما حاول الجنود الصهاينة التسلل للمخيم من منزل ياسر أبو سرية الواقع في وسط المخيم فاجأتهم المقاومة بهجوم من كافة الاتجاهات، فحوصروا على مدار ٢٤ ساعة، وقد اندلعت اشتباكات عنيفة شاركت فيها الدبابات والطائرات والمشاة، حيث كانت المقاومة عنيفة، وكان الجنود المحتلون يصرخون مصدومين، يطلبون النجدة، ويشتمون شارون، في نفس الوقت تقدمت قوة من الجيش الصهيوني لتوفير غطاء للجنود المحاصرين، وسمعناهم يرددون عبر مكبرات الصوت نداءات تطالب المقاومين بتسليم أنفسهم... فكان رد المقاومين من نفس العمل، حيث بدأ المجاهد طه زبيدي ،رحمه اللّه، في توجيه نداء إلىجنود الاحتلال باللغة العبرية، وقد خاطبهم بالقول: (أيها الجنود الإسرائيليون، انتم محاصرون، القوا أسلحتكم، فجميع أهالي المخيم انسحبوا وبيوتهم مفخخة وهي معدة للقضاء عليكم).. وقد تعالت أصوات التكبير لدب الرعب في قلوب الجنود، وقد انتهت المعركة في الساعة السادسة مساء اليوم الرابع عندما أطلقت قوات الاحتلال نيراناً كثيفة من كافة الاتجاهات على المخيم الذي أنارت سماءه الطائرات، والتي تمكنت قوات الاحتلال من إخلاء الجنود المحاصرين منه بعد أن غطت انسحابهم الدبابات بالدخان، وقد طاردهم المقاومون إلى أن وصلوا إلى أعلى المخيم قرب

منزل أبو غليون، وقد انتهت المعركة بمقتل وإصابة عدد من الجنود المحتلين، كما أصيب عدد من المقاومين.
في اليوم التالي فوجئنا بعدد كبير من المشاة داخل المخيم بعد أن تزايدت عمليات شق الطرق بواسطة الجرافات، واكتشفنا أن الدبابات كانت تنشر الجنود وتوزعهم في البيوت حيث يتراوح عدد كل مجموعه بين ٢٠-٣٠ جندياً لكل بيت، فبدأوا عمليات التوغل في المخيم عبر حفر الخنادق وشق الجدران من بيت لبيت، وقد اشتدت المعارك، وأصبحت وجها لوجه في بعض الأحيان، وسط إطلاق كثيف للصواريخ من الطائرات، حيث أطلقت الطائرات صواريخها بمعدل صاروخ واحد كل دقيقه، وقد استهدفت كافة الأماكن التي ينطلق منها رصاص المقاومة.
ويواصل ياسين شهادته: واجهنا الحرب والعدوان بصلابة، واستعنا بنظام حياة عسكري صارم فلم يتوقف صوت الأذان والتكبيرات حتى اليوم الرابع مما أثار هلع وغضب الصهاينة فاستهدفت الطائرات مواقع السماعات وكنا نصلي في الشوارع والمنازل مع التيمم للصلاة لأن قوات الاحتلال دمرت شبكات المياه والكهرباء والاتصالات وإذا وجدت المياه لم يكن بالإمكان استخدامها بسبب القصف والقناصة.
كانت الحياة صعبة ولكن تكاتفنا ووحدتنا جعلتنا نواجه الأزمات والظروف القاسية فكنا نتناوب في النوم في البيوت والطرقات وفي اليوم الخامس بدأنا بجمع الصلاة مع شدة القصف.
بالنسبة للطعام كنا جهزنا أنفسنا بتخزين كميات كبيرة من الطعام والمواد الغذائية التي استخدمها المقاتلون ثم بدأنا بتوزيعها على الأهالي الذين تولوا مهمة إعداد وتوفير الطعام والطبخ لنا، الأهالي كانوا عظماء جدا لم يبخلوا علينا بشيء وجهزوا لنا المأكل والمشرب حتى اليوم الخامس عندما اشتد القصف وبدأنا بفقد كل شيء فالطائرات قصفت بعض المخازن واحترقت كميات كبيرة من الطعام وقد بادر الأهالي لتقاسم طعامهم معنا كما أن أصحاب المحلات فتحوا أبوابها أمام الجميع دون مقابل، في إحدى المرات دخلنا بيت الأخ أبو خالد ولديه بعض الدواجن، كان عددنا ١٥ مقاتلا فاستقبلنا بحفاوة وقدم لدينا وجبة دسمة ذبح فيها جميع الدجاج ثم أعطانا ما تبقى لتوزيعه على المقاتلين.
المشكلة الكبيرة التي واجهناها كانت في ندرة المواد الطبية التي كانت محدودة وقليلة بعدما منعت قوات الاحتلال الهلال الأحمر والطواقم الطبية من دخول المخيم ومعالجة المصابين وحتى المرضى وما توفر لدينا مجموعه من الحقائب التي تضمن أدوات طبية خفيفة إلا أنها لم تكن كافية.
فخلال المعركة أصيب الشاب محمد بدوي ٢٣ عاما في قدمه وذلك خلال تواجده في

منطقه الساحة، وتمكنا من نقله لبيت أبو محمود فقامت الطائرات بقصف المنزل وهو فيه ولا زال مصيره مجهولا حتى اليوم، كما أصيب الشاب جمعه أبو خليفة في اليوم الرابع بقدمه وزحف على بطنه إلى أن وصل لمستشفى جنين الحكومي إلا أن قوات الاحتلال اعتقلته دون أن تقدم له العلاج.

واستمرت المعركة حتى مساء يوم الأربعاء واستطعنا تجميع ٥٠ مقاتلاً من كافة الفصائل منهم محمود طوالبه والحاج علي الصفوري وثابت مرداوي وجمال حويل ونضال نوباني وإياد سلفيتي وأشرف أبو الهيجاء وعبد الرحيم فرج، وذلك بعد قامت قوات الاحتلال بشق طرق وشوارع جديده داخل المخيم وتمركزت فيها الدبابات وبدأت بحصارنا وسط المخيم حيث كان بعض الناس لا زالوا في بيوتهم فقررنا التوزع على مجموعتين: الأولى بقيادة محمود طوالبه ونضال نوباني، وكان عددهم ٢٥ مقاتلا. والثانية قادها جمال حويل والحاج علي الصفوري... تعانقنا وودعنا بعضنا بعضا، بعدما تعاهدنا على مواصلة المقاومة واستبعاد أية احتمالات للاستسلام.

وفي مرحلة من مراحل التصدي للغزاة طلب منا الشهيد محمود طوالبه وكذلك نضال نوباني الذهاب لمكان آمن لأنهما سيقومان بمهاجمة الجنود الذين كانوا قد نصبوا كميناً في منزل أم محمد ضبايا الواقع في مدخل «جورة الذهب».. فتراجعنا للخلف لحمايتهم، وقد اندلع اشتباك استمر لمدة ثلاث ساعات، أطلقت خلاله الأعيرة النارية بغزارة، وألقيت العبوات الناسفة، واستمرت المعركة حامية الوطيس وقد كنا نسمع خلالها صرخات واستغاثات الجنود الإسرائيليين وهم يطلبون النجدة، وقد أحضر للمنطقة المزيد من القوات التي تدعمها الطائرات والدبابات، وقد تحصن في منزل أبو جواد مع رفاقه وتصدوا للدبابات وللمشاة المحتلين حتى لقي محمود ربه شهيدا مقبلا غير مدبر، وقد استشهد بعد أن قصفت الطائرات موقعه فقضى هو وثلاثة من رفاقه شهداء.

في هذا الوقت استمر القصف على البيوت والمنطقة بشكل عشوائي ومتواصل وبدا القتال في منطقة الساحة إلى أن نفدت الذخيرة منا، وفوجئنا في الساعة الثانية والربع من فجر الخميس الموافق ٤/١١ بمكبرات صوت من مسافة قريبة تطلق تحذيرات باللغة العربية (سلموا أنفسكم، انتم محاصرون من جميع الجهات، وسنقوم بهدم المنازل عليكم..).. إلا أننا رفضنا الاستسلام، وعندما تفقدنا المنطقة المحيطة شعرنا بالصدمة لشدة ما لحقها من دمار وتخريب، إلا أننا وعلى الرغم من كل ذلك فقد اتخذنا قرارا بعدم الاستسلام.

... تماسك الجميع على الرغم من صعوبة الموقف، وخلال الليل تسللنا لمنزل الأخ عبد الجبار، وهو المكان الأقرب لجنود الاحتلال، فقمنا بإخلاء سكانه لكي لا يتعرضوا للأذى، وقد تحصنا في المنزل، لكن المواجهات توقفت لأن الجيش أكمل حصاره

علينا، كما أن ذخيرتنا كانت قد نفدت، وبدأنا بالاتصال مع عدة جهات لبلورة موقف. تكلم الأخ جمال حويل مع النائب جمال الشاتي ووضعه في صورة الوضع الميداني فالجيش يحاصرنا ويهدد بالقصف أو الاستسلام فقال الأخ جمال الشاتي: إذا كان هناك مجال للمقاومة ابقوا في المقاومة والقرار لكم. أما الأخ ثابت مرداوي فقد اتصل مع د.رمضان شلح الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي بواسطة هاتف جوال، ووضعه في صورة الوضع، فقال له د. رمضان شلح: كلنا فخر بصمودكم، وندعم قراراكم، وكلنا ثقة بأنكم على قدر الثقة والمسؤولية، والقرار في النهاية لكم لأنكم أنتم من في الميدان. واتصل الأخ علي الصفوري وجمال حويل وثابت مع المؤسسات الإنسانية والدولية خاصة الصليب الأحمر لكن بدون فائدة.

وقد قام الإخوة بالاتصال مع السيد/ حسن نصر اللّه الأمين العام لحزب اللّه، كذلك تواصلت اتصالاتنا بالمسؤولين الآخرين في حزب اللّه، وقد حثونا على الصمود، حيث هم بصدد التنسيق مع الصليب الأحمر لترتيب صفقة للإفراج عنا بأمان، وتواصلت الاتصالات حتى الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي، وقد كان الجيش المحتل يطلق النار على المنازل طوال تلك المدة. وكان قد بدأ في الثانية والنصف فجرا بهدم جميع المنازل، وإطلاق النار والقذائف والصواريخ، حتى أصبح البيت الذي لجأنا إليه الوحيد القائم بين الأنقاض، هذا إضافة إلى أنه لم يكن لدينا طعام أو شراب منذ عدة أيام، وعلى الرغم من كل الصعوبات إلا أن معنوياتنا بقيت عالية جدا، فالأخ ثابت مرداوي ورغم إصابته كان يحفزنا على الصمود والتماسك، لم يتحدث، في أية مرة، عن الاستسلام كخيار، وقد تجلد وعالج نفسه بنفسه، وقد حافظ طوال تلك المدة على رباطة جأش عالية.

مرت الأوقات ببطء شديد وصلينا الصبح جماعة وودعنا أنفسنا وسامحنا بعضنا بعضاً وطلبنا من اللّه الشهادة وكان يقول الحاج علي الشهادة حق فاللهم ارزقنا إياها بعد أن نفذت ذخيرتنا ولم يبق لدينا أحزمة ورفض خيار الاستسلام وقال يجب أن يكون مصيرنا مع قافلة الشهداء.

تواصلت الاتصالات مع الأخ هاشم محاميد «عضو الكنيست» وأخذ على الهاتف قائمة بأسماء جميع المحاصرين معنا وابلغه بأنه رغم الحصار فانه ليس أمامهم خيار سوى الشهادة أو حل القضية مع (إسرائيل) بوساطات دولية.

ثم أبلغنا السيد هاشم محاميد أنه قد تم الاتفاق على تسليم المقاتلين أنفسهم مع ضمان عدم المس بحياتهم؛ فبكى الحاج علي وأبلغ القرار للجميع، وكان القرار الجماعي بالتفاوض لإنهاء الحصار، فصرخ علينا قائد الحملة الإسرائيلي وطلب حضور شخص للحصول على الهاتف النقال للتفاوض معنا، عندما نظرنا من نافذة المنزل فوجئنا بما كانت عليه المنطقة حيث كانت تعجّ بالجنود والقناصة، وكانت الدبابات

في كل مكان، والطائرات تحوم في السماء، وفي الأثناء تعالى صوت الضابط عبر مكبرات الصوت: سأرسل إليكم هاتفاً نقالاً. وتم ذلك بالفعل، حيث أرسلوا لنا بجهاز هاتف نقال مع أحد المعتقلين، وبعدها تحدث القائد مع جمال وقال له: بعد الاتصالات والاتفاق مع هيئات دولية فإننا نعدكم أن تخرجوا بأمان دون أن يمس أحد بكم، لكن عليكم الخروج مستسلمين... اخلعوا ملابسكم، واتركوا أسلحتكم، وستكونون في أمان...

كانت لحظات مريبة وقاسية، وكان محمود الرخ أول من خرج، ثم تبعناه واحدا تلو الآخر، لتصيبنا الصدما لمرآى بيوت المخيم وقد تحولت إلى أكوام من الركام... وقد تحول المخيم في تلك الأثناء لثكنة عسكرية تغص بالجنود الذين تمترسوا في الخنادق والدبابات جاهزين لإطلاق النار وقتلنا في أي لحظة...

لدى خروجنا لم يتحرك الجنود بل تسمروا في مواقعهم وبدوا مندهشين، كانوا ينظرون إلينا وكأننا نوع آخر من المخلوقات، أو كأننا هبطنا عليهم من السماء... كان لسان حالهم يقول: هل هؤلاء وحدهم من قاد كل هذه المقاومة ضدنا؟!!...

وهنا اقترب الضابط الإسرائيلي ذو الرتبة العالية منا وأدى التحية العسكرية، وصافح السيد جمال الشاتي وخاطبه بالقول: يا سيد جمال.. إننا لم نشهد مثل هذه المقاومة منذ قيام دولة إسرائيل، وهذه حرب بيننا وبينكم، يوم لنا ويوم لكم.. وهنا رد عليه الأخ جمال بالقول: إننا لم نخسر هذه المعركة، بل انتصرنا فيها... أنظر إلى قوة إرادتنا... وإلى سلاحنا الخفيف لكي تتأكد من انتصارنا... وهنا نادى الضابط الإسرائيلي على الحاج علي وسأله: هل هؤلاء جميعا جنودك؟.. فرد عليه: أنا لا جنود لي، بل كلهم جنود اللّه!... إننا نتوقف هنا بعد أن قدمنا ما في وسعنا، لكن سيأتي من بعدنا من يواصل الطريق...

ولشدة عجبنا فقد تراكض جنود الاحتلال نحونا ليتم التقاط صور لهم وهم معنا، وأغلب الظن بأنهم سيتفاخرون فيما بينهم بأنهم كانوا هناك في جنين حيث شقوا طريقهم بيننا بصعوبة بالغة!!... وبعد أن انتهت حفلة التقاط الصور معنا قاموا بتقييدنا واقتادونا إلى المسجد وهناك أوسعونا ضربا وركلاً بشكل وحشي!!.

شهادة المواطنة دلال ن.س

أما المواطنة دلال ن. س والبالغة من العمر ثلاثين عاما وهي ربة بيت تسكن مخيم جنين فتتحدث عن ذكريات مخيم جنين في تلك الأيام الصعبة فتقول: قام الصهاينة بإحاطة المخيم من كافة الاتجاهات، وكانوا يطلقون الرصاص على الناس بشكل عشوائي همجي بهدف القتل، وبعد فشلهم في تدمير المقاومة قاموا بتجريف المنازل في حارتنا وقاموا بهدمها فوق رؤوسنا، وكنا نصرخ لكنهم لم يتوقفوا، فقمنا

بالقفز إلى بيت جيراننا ونجونا من الموت بأعجوبة عندما قام جارنا محمد أبو عقل بفتح ثغرة في الجدار وقام بإخراجنا عبرها، ومكثنا في المنزل إلى أن طلبت منا قوات الاحتلال الخروج من المخيم، وعند خروجنا قاموا بإيقاف الشبان واعتقالهم، فيما أعادوا كبار السن إلى بيوتهم، فيما استمرت الطائرات بقصفنا، وكان جنود الاحتلال يصوبون بنادقهم إلى صدورنا، وقد انتشر القناصة الإسرائيليون في منازل المخيم، فيما تناثرت جثث الشهداء في كافة الأنحاء، أما عن توفر المواد الغذائية فقد كان هناك نقص شديد فيها، وكانت بعض البيوت تعاني من نفاد الأغذية منذ ثلاثة أيام، وبسبب قلة الماء فقد لجأ الناس إلى التيمم للصلاة، وقد قام الاحتلال باستخدام المسجد كثكنة عسكرية، وكان القناصة يطلقون النار على كل شيء يتحرك، إلا أن المقاومين كانوا يهاجمون الاحتلال بقلوب مؤمنة بخيار الشهادة أو النصر، وقد كان محمود في مقدمة المدافعين عن المخيم، وقد رفض مرارا الموافقة على إعلان وقف لإطلاق النار ليتمكن الجنود المحتلون من سحب قتلاهم وجرحاهم من أرض المعركة، وأخيرا فقد لجأ محمود إلى تلغيم بيته في المخيم وفجره حين دخله الجنود المحتلون، حيث قتل ثلاثة منهم، وفي حادثة أخرى قام محمود بالهجوم على مجموعة من جنود الاحتلال كانت تحصنت في أحد بيوت المخيم، حيث قتل أربعة منهم، وقد انسحب بعد ذلك إلى حارة الدمج، وفي أثناء انسحابه قام بإعداد عدة كمائن لجنود الاحتلال، مما نتج عنه قتل وجرح عدد من المحتلين.

شهادة هشام ع.س

أما هشام ع. س. والبالغ السابعة والثلاثين من العمر فقد روى شهادته عن أيام جنين وذلك بالقول: عندما شنت قوات الاحتلال هجومها على مخيم جنين كنا نتواجد في منزلنا في حي الدمج، وقد وقعت معركة قوية وشرسة في المخيم، رغم قيام طائرات الاحتلال بقصف البيوت بالطائرات والدبابات، حيث أحرق عددا كبيرا من البيوت أو قام بتجريفها، وقد كانت تلك اللحظات من أصعب ما مرّ عليّ في حياتي، حيث قامت قوات الاحتلال بتجريف بيتنا مع ما جرفته من بيوت، في طرفة عين أحالوا المنزل الذي يؤوي ثلاثين شخصا إلى ركام، وقد هاجمونا دون سابق إنذار، وبعد إغلاق كل طرق الهروب من المنزل في وجوهنا، وكذلك هدم البوابة الرئيسية لم يبق أمامنا سوى إحداث فتحة في الجدار والمرور عبرها إلى بيت الجيران، واستمروا في مطاردتنا من بيت إلى آخر، وفي هذه المرة تم قصف المنزل بالصواريخ، إلا أن الله نجانا.

أما عن معركة المخيم فيقول عنها: تميزت معركة جنين بالشجاعة والجرأة، حيث قاتل أبناء المخيم بقيادة محمود طوالبه ببسالة، وقد لجأ المقاومون إلى زرع العبوات

الناسفة في مداخل الحارة، وقد تم تفجير العبوات عندما تقدمت دبابات الاحتلال وجنوده، مما نتج عنه مقتل عدد من الجنود.

شهادة هيثم ع.أ

أما هيثم ع.أ والبالغ الثامنة والثلاثين من العمر فيقول في شهادته: بقينا في داخل المنزل لمدة عشرة أيام وكانت الصواريخ تتساقط على بيوت المخيم من الطائرات، والمدافع تقذف حممها لأيام وأيام، كانت أياما صعبة وقاسية، وكنا قد تحسبنا لهذا الأمر فجلبنا تموينا يكفينا لمدة أسبوع، إلا أن غالبية تلك المواد قد أصابها التلف بسبب انقطاع الكهرباء، وفي الأيام الأخيرة كنا نتقاسم الطعام بيننا، إلى أن نفذ كل شيء ممكن أن نأكله، بعدها أجبرنا على الخروج من المنازل لأن الجرافات كانت تهدم المنازل على رووس ساكنيها، ولم نتمكن من التحرك بسبب القناصة الذين يطلقون النار على كل شيء يتحرك، ولا يفرقون بين كبير ولا صغير ولا مريض... فإذا ما تلونا القرآن الكريم استشعرنا القرب من اللّه عز وجل لشدة ما كنا نكابده من محن... وفي الأيام الأولى للعدوان كنا نتوضأ بما تيسر لنا من ماء، لكن بعد ذلك لجأنا إلى التيمم، فإذا ما صلينا لجأنا إلى صلاة الخوف، وغني عن القول بأننا لم نكن نتمكن من الوصول إلى المسجد، حيث لم يتوقف القصف والإطلاق العشوائي للنيران، وعلى الرغم من كل ذلك فقد كانت المقاومة شديدة جداً، وقد لجأ المقاومون إلى تلغيم المنازل، ونصب الكمائن، وعلى الرغم من التفوق الكاسح للاحتلال على المدافعين عن المخيم من حيث امتلاكهم للدبابات والطائرات والمدفعية إلا أن شباب المخيم تفوقوا في بسالتهم، والتي استمدوها من مدد إلهي لا ينضب ولا ينتهي من الإيمان باللّه وبعزته، وبقدرته، وبضرورة الصمود. وقد كان محمود طوالبه في طليعة المقاتلين، بما امتلكه من إيمان وشجاعة، كان لا يخاف الموت، وكان أول الشباب في الهجوم، وعندما يقوم شباب المخيم بقتل جندي أو إعطاب دبابة كان محمود يقوم بتوزيع الحلويات على الشباب... وكثيرا ما رأيناه يصلي مع الشباب، رافعا من معنوياتهم...

شهادة الشاب أنس أ.هـ

أما الشاب أنس أ.هـ (٢٠ عاما) من سكان مخيم جنين فيروي صوراً من معركة المخيم، ومشاركة محمود فيها، فيقول: كان الشهيد محمود طوالبه رحمه اللّه مع

بعض المقاتلين في أحد البيوت فحدثت اشتباكات بين المقاتلين وجنود الاحتلال، عندها طلب محمود من المقاتلين الانسحاب إلى الخلف، وذلك بعد اشتباك عنيف دار مع العدو تمكنوا خلاله من إحكام الحصار على الجنود الصهاينة، على الرغم من عمليات القصف الوحشية التي شاركت الطائرات في تنفيذها. ويضيف: قام طوالبه بتفخيخ البيت وزرع الألغام من حوله، وانسحب المقاتلون بناء على الخطة الخداعية التي رسمها محمود. ويضيف أنس: وقد نجحت الخطة بالفعل، حيث قام الجنود بالدخول إلى المنزل الذي قام محمود بتفخيخه وبتفجيره، مما نتج عنه قتل وجرح عدد كبير من الجنود، وقد اشتدت المقاومة بعد تلك العملية، حيث ساهمت في رفع الروح المعنوية للمدافعين، وأثرت تأثيراً عكسياً على جنود الاحتلال، فبدوا في روح معنوية منهارة، فبدأت الطائرات، من جديد، بإطلاق الصواريخ على المخيم بشكل عشوائي، مما نتج عــن ذلك إصابة الشهيد محمود إصابة طفيفة في يده، لكنه لم يأبه لما أصابه، وبعدها انسحب محمود ومن معه إلى حارة الحواشين، حيث حدثت اشتباكات عنيفة رفض محمود الاستراحة خلالها، واستمرت الاشتباكات لمدة ٧ ساعات متواصلة سقط خلالها عدد من الجنود بين قتيل وجريح.

شهادة إياد . أ وهو شقيق شهيد

أما إياد أ وهو شقيق لشهيد فقد يروي في شهادته:

قام الشهيد محمود طوالبه بتفخيخ مداخل المخيم وبعض البيوت والسيارات والأشجار، وكان الشهيد قائدا في المحور؛ و يتنقل باستمرار بين جميع المجموعات المقاتلة من كافة الفصائل والتنظيمات، يمدهم بالذخيرة والعبوات، وقد كان ما يشغله هو كيفية مقاومة طائرات المحتلين، وذلك لتجنيب المقاومين قدر الإمكان من الإصابة بصواريخها، في نفس الوقت استمر محمود في صنع العبوات حتى الأيام الأخيرة من المعركة، كما قام أيضا بحشو المواسير المعدنية بالديناميت، وعندما يتقدم الجنود يقوم بتفجيرها.

لم يكن محمود مقاتلاً صلباً فحسب، بل كان يتفقد الناس والمقاتلين، وكان يقوم في أحيان كثيرة بتوزيع التموين على الناس وعلى بعض المقاتلين، وقد سمعت (أنا شخصيا) محمود وهو يخاطب بعض المقاتلين قائلا لهم: «أريد الشهادة وان شاء اللّه سأنالها ولقاء ربي أفضل لي من أن أقبع في سجون الاحتلال، وعار علي أن يقتلوني بعد أن أقوم بتسليم نفسي لهم»...

شهادة الحاجة أم وضاح

أما الحاجة أم وضاح ٤٢ سنة فتحكي عن محمود وبطولته ما يلي: يقع بيتنا في شارع العودة في مخيم جنين وقد رأيت الشهيد البطل طوالبه وهو يصنع المتفجرات، وقد جاءني في أحد الأيام وكان يسأل عن بعض أصدقائه من المقاتلين، وقد استأذن مني في الدخول إلى المنزل، وكان معه بعض المقاومين، وطلب مني إذنا للسماح له بخلع بعض الشبابيك من أجل تسهيل مرور المقاتلين من بيت إلى بيت، وأثناء مكوثه في البيت أنجبت ابنتي طفلة. فسألته يا ابني يا محمود، أريد منك أن تختار اسما لطفلتنا لتنال منك البركة... فضحك يومها بخجل وقال: بارك اللّه فيها ويشرفني ذلك ولكن هذا ليس من حقي!! عندها ألححت عليه وخيرته بين اسمي «اجتياح» أم «صمود» فما كان منه إلا أن ضحك قائلا: إذا لم يكن من الاختيار بدٌ فإنني أختار اسم «صمود»... وبالفعل سميناها «صمود» قال لي ذلك وقد كان يتوضأ للصلاة، لا زلت أذكر قطرات الماء وهي تتساقط من لحيته!!.

وتتوقف أم وضاح عن الكلام لتبكي محمود، الذي أعادته لها الذاكرة، فهي لازالت تتذكره رجلا شهما متواضعا، وأجمل ما فيه أنه كان يداعب الأطفال ويمسح على رؤوسهم، وكان دائم التوصية خيرا بهم، فكان الأطفال عندما يشاهدونه يجلسون إلى جواره على أرض الشارع، فيداعبهم ويتلطف معهم.

كذلك فقد كان الشهيد محمود دائم الشكر لكل من يقدم له معروفا، فقد اعتاد أن يشكر كل من يقف إلى جانبه في محنة المطاردة، وكان يردد دوما «بارك اللّه فيك وجزاك اللّه خيرا» كما أنه درج على أداء الصلاة في وقتها، ويصوم غالبية أيام الأسبوع، وبقي على حالته تلك إلى أن اختاره اللّه إلى جواره شهيدا مكرما!...

شهادة سعيد . ط

وحول أحداث معركة جنين فإن سعيد.ط. وهو أحد المقاومين في المخيم يقول: تواجدت خلال المعركة في الحي الغربي من المخيم في بيت محمود طوالبه، وهو الذي وضعنا في المنزل بعدما قام بزرع ألغام في الحارة لنصب كمائن للجنود، وعندما بدأ التقدم الإسرائيلي من منطقة الجابريات، غرب المخيم، دخل الجيش الإسرائيلي إلى بيت أم ساري، وكان المقاومون ينصبون الكمائن التي قام محمود بإعدادها، وقد اشتبكنا مع الجيش وسقط من اليهود عدد من الجرحى والقتلى، بعد ذلك حضر محمود من حارة الحواشين قادما إلينا في الحي الغربي، وكان معه عبوة ناسفة كبيرة أراد إلقاءها على جنود الاحتلال المتواجدين في البيت المذكور، وكانت طائرة أباتشي تحوم في سماء المنطقة، حيث قامت بإطلاق عدة صواريخ على مكان الاشتباك، وعندما حضر محمود قامت إحدى النساء بإدخاله إلى البيت، حيث قام بتجهيز العبوة، بعدها قام الشهيد بهدم جدار بيته من اجل أن يتمكن المقاتلون

من النيل من الجنود، وقد كانت المقاومة شديدة، إلى درجة اضطر الجيش معها إلى الانسحاب، وقد أصيب محمود بشظية في يده، فجاء بعض الشباب من الحي الشرقي يريدون ذخيرة فذهبت أنا ومحمود معهم ذهبنا إلى حارة الحواشين وقام بإمداد المقاومين بذخيرة.. وفي موقف آخر كان محمود ومعه بعض المقاومين متواجدين في منطقة بيت أبو الكامل فحدثت اشتباكات عنيفة، تمكن خلالها محمود ومجموعته من قتل جنديين.

ويروي الشاب هيثم من مخيم جنين أن الجنود الصهاينة تقدموا في اليوم السابع من اجتياحهم للضفة الغربية نحو ساحة مدخل حارة الحواشين، وقد حاولوا الدخول للحارة تحت غطاء الطائرات؛ لكن المقاومة بقيادة محمود طوالبه وأبو جندل تصدت لهم وهاجمتهم. ويقول هيثم: شاهدت الأبطال وسمعتهم وهم يهتفون «اللّه أكبر» ويرفعون معنويات بعضهم بعضاً وهم يرددون الأناشيد الوطنية؛ فيما كان الجنود يصرخون ويبكون ويطلبون النجدة، ويؤكد هيثم أن المعركة استمرت وجها لوجه ٤ ساعات استبسل خلالها الأبطال وخاصة طوالبه وأطفال الاكواع في التصدي حتى اندحر الجنود من الحي وهم يبكون ويجرون أذيال الخيبة.

شهادة يوسف ، ص

أما الشاب يوسف ص. فيروي ذكرياته عن أيام جنين التي قضاها مع محمود فيقول: خلال المعركة نصب الشهيد طوالبه كمينا لقوات الاحتلال داخل أحد المنازل الواقعة في الحي الغربي من المخيم، وعندما تقدم جنود الاحتلال نحو الموقع اندلعت اشتباكات عنيفة بينهم وبين المقاتلين الذي قادهم محمود، حيث أمطروا الجنود بوابل من الرصاص، وقد تمكنوا من قتل جندي وإصابة عدد آخر، وقد أصيب محمود مرة أخرى بشظية بيده خلال المعركة ولكنه حمل البندقية في اليد الأخرى وواصل القتال وخلال ذلك أصيب الشاب احمد الطوباسي برصاص جنود الاحتلال في قدميه، مما جعل محمود ينسى جرحه، فأخذ في معالجته وتقديم الإسعافات له، حتى تمكن من تأمينه وإخلائه إلى منطقه آمنة.

وقد تميز محمود خلال المعارك جميعها بصلابته، حيث كان يطوف على المقاتلين فيرفع من معنوياتهم، كان يتحدث إليهم بحب وثقة، ويردد التكبيرات ويقول لهم: اصبروا فإن النصر صبر ساعة، وتوكلوا على اللّه فنحن أقوى من طائراتهم وقوتهم لأننا نقاتل عن عقيدة وإيمان. ورأيته لا يكتفي بالقتال، بل ويحمل العبوات في أكياس على ظهره حيث يوزعها على المقاتلين.

وفي إحدى المرات ،يتذكر صالح، قام الشهيد طوالبه بنصب كمين مع مجموعة من المقاتلين بالقرب من بيت أبو رشاد النورسي وعندما تقدم الجنود انقضوا عليهم،

حيث تمكنوا من قتل أحد الضباط الصهاينة، وقد سمعته يهتف في المقاتلين: تقدموا... «اللّه أكبر» والنصر للإسلام.
وفي تلك الملحمة كان نجم من نجوم سرايا القدس يخوض المعركة مع محمود طوالبة وإخوته.
الشيخ رياض بدير مسؤول حركة الجهاد الإسلامي في منطقة طولكرم. أبى الشيخ رياض الذي طالما دعا إلى الجهاد والاستشهاد إلا أن يخرج شاهراً سلاحه ملتحقاً بأخوانه المجاهدين المدافعين عن مخيم جنين ظل الشيخ رياض بدير صامداً في أحد البيوت الذي حاصرته قوات الاحتلال طالة منه الاستسلام فرفض الخروج مستسلماً. فقامت قوات العدو بهدم البيت عليه ووجد الأهالي جثته الطاهرة تحت الأنقاض محتضناً سلاحه وقرآنه.
لقد أكد المجاهدون المحاصرون في مخيم جنين عبر اتصالاتهم مع قيادة حركة الجهاد الإسلامي بأن آخر جيوب المقاومة كان مؤلفاً من سبعة وعشرين مجاهداً على رأسهم الشيخ المجاهد رياض بدير الذي ظل صامداً حتى الحادي عشر من نيسان رافضاً الاستسلام حتى لقي اللّه شهيداً مقبلاً غير مدبر.
كان الشيخ رياض بدير من أبرز المطلوبين لجيش الاحتلال الصهيوني. وسبق أن اعتقلته أجهزة أمن السلطة. وخرج بعد أن ضربت الطائرات الحربية الصهيونية مقر المقاطعة التي يوجد فيها السجن. وقد تمكن عدد من المجاهدين اقتحام السجن بعد قذف الصاروخ الأول عليه وتمكنوا من إخراجه المعتقلين وإنقاذ حياتهم. وكان الشهيد رياض قد اعتقل عدة مرات على خلفية تعبيره عن موقف حركة الجهاد الإسلامي الداعي إلى استمرار الجهاد والمقاومة ضد العدو الصهيوني. وأصيب الشيخ المجاهد قل شهود بعدة جروح في ساقية أثناء تصديه لقوات الاحتلال أثناء محاولتها اقتحام مخيم نور شمس.
وقالت الشهادات الحية عنه: إنه باع بيته وسيارته ليشتري سلاحاً يجاهد به. وهذا السلاح لم يفارقه إلا بعد انتشال جثته من تحت الأنقاض حتى إنهم سحبوا إصبع السبابة من خلف الزناد لأنه أطلق الرصاص حتى آخر طلقة. لقد طلب الشيخ رياض بدير الشهادة واختارها في جنين.

عاصمة المقاومة والاستشهاد جنين

شاهد إضافي على همجية الاحتلال

خاض ويخوض الكيان الصهيوني حرباً ضارية ضد الشعب الفلسطيني، إلا أنه لم يستطع ،في أي وقت، أن يكسر إرادة الصمود والتحدي لدى شعبنا البطل، بل انتقل

الشعب الفلسطيني بأسره من مرحلة الانتظار إلى مرحلة الفعل. وقد شكل صمود المجاهدين في مخيم جنين علامة فارقة في مرحلة الجهاد والمقاومة التي ينتهجها الشعب الفلسطيني وقواه المجاهدة. فعلى الرغم من هول وبشاعة ما تعرض له أبناء الشعب الفلسطيني في جنين ونابلس وبيت لحم ورام اللّه، إلا أن هذا العدو لم يتمكن من كسر إرادتنا، وقد فشل بالتالي من تحقيق هدفه المعلن ألا وهو وقف الهجمات الاستشهادية والعمليات النوعية في عمق كيانه سواء في حيفا أو في القدس وفي كامل التراب الفلسطيني في غزة والضفة.

وككل محتل غاصب، يعيش على دماء الأبرياء، ويصنع من مجازره جسراً للعبور إلى نصر موهوم، نفذ جيش الاحتلال مجازر عديدة في مخيم جنين، شكلت عنواناً جديداً إضافياً على بربريته ولا إنسانيته ولكن هذا الإجرام لم يفلح في كسر إرادة الشعب المقاوم بل إن جيش العدو حشر في جنين فبدا في حجمه الطبيعي، وظهر للعالم في كامل بربريته وهمجيته، وقد تحطمت أسطورة الجيش النبيل الذي لا يقهر!، وتبعثرت مقولة «طهارة السلاح» التي طالما تفاخر بها على العالم ، فظهر كجيش قاتل للنساء والأطفال، هذا إلى ما بدا على ذلك الجيش من علائم الهزيمة، حيث تجندَل جنوده صرعى كمائن المجاهدين ورصاصهم القليل، فأصبح مخيم جنين أسطورة المقاومة، ولعنة ستطارد المحتلين حتى يرحلوا عن أرض فلسطين.

بعض بطولات جنين

وسيكتب التاريخ قصة البطولة التي تخيرت لنفسها أشرف مكان... وكتبت نفسها بحروف من تضحية ومجد وشهادة، إنها قصة جنين، وأزقة جنين، التي لازالت قصصها مخبوءة بين تلافيف مؤامرة شريرة اشترك فيها الكثير من الأعداء وبعض ممن بدوا وكأنهم أصدقاء، فهل كانت جنين شريرة في عيون أولئك حتى يأتلفوا ضدها في هذا الائتلاف العجيب، حتى المجزرة التي تمت هناك محوا آثارها وشهدوا وأقسموا أنها لم تحدث قط!!!

وأيا كان الواقع الذي تحكمه اليوم أمريكا ، وأيا كان العالم الذي تحكم فيه إسرائيل أمريكا، إلا أن هذا كله لا يمكنه أن يخفي معالم البطولة التي رسمها ذلك المخيم وأبناؤه وبناته الطيبون، الذين سيبقون مثالا للعزة والكرامة وإرادة الصمود، والتي استطاعت أن تقهر الأعداء وإن لم تستطع أن تهزمهم لكن إلى حين. وهو القهر الذي بدا واضحا في تعليقات سياسييهم، وخطته أقلام كتابهم... حيث لم يمتلكوا إلا أن يسلموا ببطولات المجاهدين، والتي سنستعرض بعضاً منها فيما يلي:

* (٠٢/٤/١٠) قالت إذاعة الاحتلال الصهيوني أن عدد الصامدين من المقاتلين في مخيم جنين لا يتجاوز مائة شخص مسلحين بأسلحة فردية، وعبوات متفجرة

تزن الواحدة منها مائة كيلو غرام. وأضافت الإذاعة الصهيونية: «على الرغم من ثمانية أيام من المعارك المتواصلة والقصف بالمروحيات والدبابات، وهدم المنازل فلم يتمكن الجيش الإسرائيلي من إنهاء المقاومة في المخيم، والتي انحصرت في مساحة بسيطة وسط المخيم» وللعلم فإن مساحة مخيم جنين لا تتجاوز ٦٠٠ متر مربع.

* (٠٢/٤/١٠) أعلن قائد ما يسمى بالمنطقة الوسطى اللواء إسحاق إيتان بأن مئات الفلسطينيين يتحصنون في مخيم جنين بقيادة كبار رجال الجهاد الإسلامي في المنطقة محمود طوالبه، وثابت مرداوي، والشيخ علي الصفوري. وأضاف إيتان: «إن هذه قاعدة للمخربين الانتحاريين». مضيفاً: «إن المخيم عاقد العزم على القتال حتى النهاية».

* (٠٢/٤/١٠) كتب زئيف شيف وهو الخبير والمحلل الاستراتيجي في صحيفة هآرتس «من الواضح أن مخيم اللاجئين جنين يرى استعدادات كبيرة وشاملة عشية إمكانية أن يعود الجيش إلى المكان. والنواة الصعبة للمسلحين الفلسطينيين في المخيم كانت منظمة الجهاد الإسلامي التي قرر عناصرها القتال حتى الرصاصة الأخيرة، ولن يستسلموا».

وقد صدقت تحليلات شيف، لأن محمود طوالبه (قائد سرايا القدس)، رفض الاستسلام، وقاتل حتى الرصاصة الأخيرة، حيث كان قد استدرج جنود العدو إلى منزله في المخيم بتاريخ (٠٢/٤/٦) وعندما اقتحموا المنزل فجره بهم، مما أوقع العديد منهم بين قتيل وجريح، وذلك قبل أن يستشهد بتاريخ (٠٢/٤/١٠).

* ومن حكايات البطولة حول مخيم جنين وأبنائه الأبطال أن دبابة صهيونية كانت قد تحصنت بجوار مسجد مخيم جنين الكبير وسيطرت على الساحة الرئيسية للمخيم، وكانت تطلق نيرانها طوال الوقت، مما أدى إلى استشهاد عدد من أبناء المخيم، فتطوع مقاوم لإعطابها فدخل في إحدى فوهات التصريف الصحي ومعه خمسون كيلو غرام من المتفجرات، ليخرج من أخرى قريبة من الدبابة ثم أشعل العبوة، وأعطب الدبابة!!. ويفيد المواطنون أن الجنود بقوا محصورين في الدبابة لأكثر من ثلاث ساعات وهم يخشون الخروج.

* ويروي أحد أبناء المخيم أن المقاومين قتلوا كولونيل في الجيش الصهيوني أمام منزل ماريا في المخيم، وقد أمطره المقاتلون الفلسطينيون إلى أن خرّ صريعاً ولم يجرؤ أحد من الجنود على حمله أو إسعافه، وبقي صريعا على الأرض ينزف رغم أنه قائد الوحدة.

* وتقول سيدة كانت محاصرة في بيتها إن الجنود الصهاينة الذين تمركزوا على مدخل منزلها سمعت تذمرهم عندما كان يشتد رصاص المجاهدين، وأنهم كانوا

يشتمون شارون كلما انفجرت عبوة بالقرب منهم. ويؤكد المقاومون أن خسائر العدو كانت كبيرة جداً ولم تظهر لوسائل الإعلام، ففي اليوم الأول من الاجتياح أعطب المجاهدون ثلاث دبابات، أحرقوها بالكامل والجنود بداخلها. كما قتل المجاهدون في منطقة الجابريات ما يقرب من خمسة إلى سبعة جنود إلا أن العدو لم يعترف بذلك.

رغم الجراح ...
لازال المخيم يبتسم!!!

من وسط الجراح النازفة خرج اللاجئون الفلسطينيون في مخيم جنين من بين ركام الدمار الصهيوني وثنايا المجزرة الوحشية أكثر قوة ووحدة وتلاحما واستعدادا للتضحية والبذل والعطاء، وبقدر أكبر من الثورة والسخط والغضب والاستنكار للموقف العربي والدولي، وبينما كان أهالي المخيم يصبون جام غضبهم ولعناتهم على زعماء العرب المتخاذلين المستسلمين، كانت أم علي ومعها عدد من ماجدات المخيم يؤكدن أن الاستثناء الوحيد في هذا الغضب الساطع هو الشهداء وفي مقدمتهم محمود طوالبه، والسبب كما تقول هند ع. (٦٥)عاما (والتي هدم منزلها المكون من ٣ طبقات) أن هؤلاء الشهداء والقائد طوالبه هم المجاهدون الحقيقيون الذي لم يتخلوا عنا ولم يفرطوا بنا أو يساوموا أو يتآمروا على شعبنا، وأضافت وهي تقبل صورته بحرارة وتمسح الدموع من عينيها: (جميع القادة تآمروا علينا، ورضخوا لأمريكا وإسرائيل، لكن الشهداء لم يخونوا شعبهم، الشهداء وطوالبه رفضوا التخاذل والرضوخ ووقفوا مع شعبهم، لذلك كله فإن البشر والشجر والحجر في فلسطين ينحني إجلالا وإكبارا لهؤلاء المجاهدين الذين رسموا فلسطين في قلوبهم وضمائرهم وجعلوا قضيتها قبلتهم الأولى والأخيرة.)

نفس الموقف يتردد على لسان كل فلسطيني في المخيم الذي صمد في وجه أعتى حرب عدوانية صهيونية، وبينما يتسابق الشبان والأطفال لتزيين واجهات المنازل والشوارع بصور الشهداء بفخر واعتزاز، ويرفعون صور طوالبه لأنه كان من أبرز رموز المقاومة، ويعيش في قلب وضمير كل فلسطيني في المخيم الذي استمد الصمود من صمود مقاتليه..

أما والدة الشهيد محمد عمر حواشين الذي اغتالته قوات الاحتلال في اليوم الأول من الاجتياح الغاشم للمخيم وفي اليوم السابع قامت بهدم منزلها وتشريدها فتقول: سنرفع صور كل الشهداء، وطوالبه بشكل خاص، سنرفعها في كل بيت، وفوق أنقاض كل منزل يهدمه المحتلون، لنؤكد أن شعبنا سيواصل التحدي، وتعلم

الدرس من ملحمة البطولة في مخيم جنين فمنهم نستمد الإرادة والصمود، وسبب تقديرنا لطوالبه أنه القائد الذي لم يتمترس إلا في خندق الجهاد والمقاومة، لم يتراجع أو يتلون كغيره، ويكفي أن أقول إن ولدي الشهيد كان يردد مع أقرانه في آخر لحظات حياته «يا طوالبه يا حبيب اقصف دمر تل أبيب».

وبينما كانت طواقم الإغاثة تواصل رفع الأنقاض تسلق الطفل ضياء عويس أنقاض منزلهم المدمر وهو يحمل صورة شهيد، في منظر أثار جماهير المحتشدين في المخيم ووسائل الإعلام التي راقبت ذلك الطفل الفلسطيني الذي يتسلق منطقه الخطر والجميع يتساءل عن صاحب الصورة، وفيما كتم العديدون أنفاسهم قلقا على حياة الطفل؛ وصل ضياء لقمة ركام البيت ورفع إشارة النصر؛ ثم نصب الصورة التي كانت للشهيد طوالبه وعدد من المقاتلين على أنقاض المنزل وهو يبتسم، وفي اليوم التالي تسابق أطفال وشبان المخيم لتقليد ضياء والصقوا العشرات من صور طوالبه ورفاقه على امتداد واجهات المخيم، كرسالة وفاء وتقدير لرمز المقاومة والصمود الذي وقف بصلابة في المعركة. وأكد رياض (وهو أحد سكان المخيم) أنه يرفض تعليق صور أخرى غير صور الشهداء، لأن الجميع خذلوا شعبنا وتآمروا عليه أما الشهداء فبقوا معنا ولا نبالغ إذا قلنا أننا شعرنا بوجوده معنا في معركتنا.

وتروي الطفلة سماهر عيسى خالد أن الجنود لدى اقتحامهم منزلها استشاطوا غضبا عندما شاهدوا صورة طوالبه تزين واجهة المنزل؛ فمزقوا الصورة؛ وكسرّوا محتويات المنزل؛ وهددوا بنسفه فوق رؤوس أصحابه، لكن تلك التهديدات لم تخف سماهر؛ التي بدأت بجمع الصورة الممزقة وإعادة ترتيبها ولصق أجزائها، ونصبها مكانها وفي اليوم التالي توجهت إلى جنين وأحضرت صورة جديدة لطوالبه علقتها في صدر المنزل غير آبهة بتهديدات وإرهاب الجنود، وقالت: ستبقى هذه الصورة تزين قلوبنا وعقولنا ومنازلنا؛ فمنها نستمد قوة الصمود والتحدي.

طوالبة
أسطورة الأطفال
ونشيدهم المفضل!!

محمود طوالبه، «قائد سرايا القدس في الضفة» هو واحد من أبناء المخيم، عرف ببساطته، وبدماثة خلقه، تحول إلى أسطورة في نظر أطفال جنين ومخيمها ويروي الصباح قصته مع «شمس» طفله الصغير الذي جاءه ذات صباح حاملا بقايا صاروخ إسرائيلي طالبا من والده الذهاب إلى قوات الأمن الفلسطيني لتأمين هذا الصاروخ للطوالبه، فسأله لماذا؟ وببراءة أبناء السادسة! أجاب والده: لحمايتنا من اليهود.

في اليوم الثاني طلب شمس من أخته الإبقاء على سره وعدم إفشاء سر مخزنه السري الذي يجمع فيه «الكواع والرصاص» فهو يجمع كل ما يلزم من رصاص وقنابل لإرسالها إلى طوالبه غير مصدق أن محمود الطوالبه قد استشهد منذ أيام!!؟؟؟.

وعلى الرغم من ذلك الغياب إلا أن محمود بقي بين أولئك الأطفال ، لأن رصاصة أو قذيفة أو حتى صاروخ أباتشي من الصعب أن تُغيّب من كان بمثل ذلك الحضور... من الصعب أن تغيب محمود!!

فغدت (طوالبه ...طوالبه ....طوالبه ...) أغنية جديدة خط أطفال مخيم جنين كلماتها، وببراءة ممزوجة بالحب والتقدير شكلوا حروفها وألحانها؛ لتصبح نشيدهم الوحيد في أول مسيرة يشهدها المخيم تكريما لأطفاله الذين استشهدوا برصاص العدو الصهيوني الغاصب خلال العدوان والمجزرة الوحشية على أرض مخيم الصمود والمقاومة ... لكن الأطفال الذين غادروا طفولتهم لم يعودوا قادرين على حفظ الأناشيد والأغاني الخاصة بالأطفال، بل أغاني المقاومة التي أصبحت تشكل حياتهم...

وبينما كان فريق الصحة النفسية يحشد الأطفال في ساحة مدرسة الوكالة لإحياء ذكرى زملائهم الشهداء فوجئ الجميع وهم يشاهدون الطلبة يفتحون حقائبهم ليخرجوا منها عشرات الصور التي كانت للشهيد محمود طوالبه، وصرخاتهم تنطلق بقوة: «طوالبه.. طوالبه» و «بالطول بالعرض.. طوالبه يهز الأرض». واهتزت أرض المدرسة تحت أقدام الطلبة؛ وهم ينطلقون في مسيرتهم بعفوية حاملين صور طوالبه وصور عدد من الشهداء الأطفال؛ وصوتهم يعلو على هدير الجرافات والطائرات التي ما زالت تحلق في سماء المخيم ليعلو على كل الأصوات الأخرى...

يا طوالبه يا حبيب بكرة الرد في تل أبيب ...
يا سرايا ويا قسام بدنا منكم انتقام..

يا طوالبه هات هات بدنا منك عبوات ...
طوالبه قالها... سرايا واحنا رجالها ...
يا طوالبه يا مغوار المخيم شعلة نار ...

صور أذهلت جميع المحتشدين فالأطفال لم يعودوا أطفالا؛ وأحلامهم وأمنياتهم لا تتعلق بدمى وألعاب الطفولة ...بل بالمقاومة والشهادة، وطوالبه الذي قاد معركة المخيم كما قال الطالب بسام ز. ١٤ عاما: أمنيتي أن أصبح مقاتلا مثل محمود طوالبه؛ الذي دافع عن المخيم ولقن العدو درسا لن ينساه...
أما الطالب معتصم الذي تفنن في ترديد الهتافات فقال:
نهتف لطوالبه لأننا شاهدناه يقاتل ببسالة؛ ويدافع عنا.
ويضيف معتصم:
صورته لا تفارقني... فقد رأيته خلال المعركة وهو يقود شباب المخيم ويحثهم على الصمود؛ وعندما هدم الجنود أحد المنازل قفز محمود داخل النار وأخرج الأسرة وأنقذ حياتها؛ لذلك أتمنى أن أصبح مثل طوالبه.
أما الفتى عوض ع. فيرفع راية طوالبه ويهتف بحياته بصوت عال:
(بالطول بالعرض طوالبه يهز الأرض)
ويواصل:
جميعنا نتمنى أن نصبح مثل القائد البطل محمود طوالبه؛ الذي رفض أن يغادر المخيم؛ وواصل القتال من بيت لبيت؛ ومن شارع لشارع، رأيت طوالبه ينصب الكمائن للجنود رغم قصف الطائرات؛ ويوزع العبوات على الأشبال، وفي هذه المسيرة نريد أن نقول لكل العالم إن:
(طوالبه وإن استشهد فهو حي لن يموت وجميعنا طوالبه).

الطالبات يهتفن بحياة طوالبه

وانضمت طالبات المخيم لإخوانهنّ من الطلاب؛ وحملن صور طوالبه وتعالت صيحات: «اللّه أكبر»... بالروح بالدم نفديك يا طوالبه...
وتقول الطالبة آمنة خ.:
(جميعنا يعرف طوالبه البطل ويتمنى أن يصبح مثله ويسير على دربه؛ وهذه الشعارات التي نطلقها إنما هي تعبير بسيط عن مشاعرنا تجاه أحد أبطال الشعب الفلسطيني)..
أما الطالبة هند فتخرج صورة للقائد طوالبه من حقيبتها المدرسية وتقول:
(أتذكر في هذه اللحظات محمود طوالبه الذي لم يكن مقاتلا فحسب، بل كان

إنسانا قبل كل شيء، حيث كان يتفقد أبناء شعبه في المخيم ويحثهم على الصمود ويوزع عليهم المساعدات. وتضيف: في اليوم السابع للقصف والحصار نفدت المواد التموينية من غالبية المنازل في حي الدمج ولم يتمكن أحد من إيصال أية مواد لنا، وخلال الليل شاهدنا طوالبه يخاطر بحياته ويتسلل بين الأزقة حاملا رشاشه ومواد تموينية وزعها علينا... لن أنسى ذلك)!!!...

وتروي الطالبة ميساء ع. أنها شاهدت محمود طوالبه وهو يهاجم مجموعة من الجنود حاولت التسلل للمخيم، وتقول ميساء:

(الجميع شعر بالخوف على طوالبه ورفاقه؛ لأن الطائرات كانت تقصف المخيم بشدة، وذلك للتغطية على الجنود الذين هاجمهم طوالبه ورفاقه، فأصابوهم بإصابات موجعة، إنه بطل حقيقي، ولن ننساه)...

ساعة من الهتافات

وتجمع الطلاب والطالبات قرب النصب التذكاري المقام تخليدا لذكرى استشهاد زملائهم وزميلاتهن من الشهداء، فزينوه بالأكاليل، ثم اصطفوا حوله ليبقى نشيدهم ،على مدار ساعة، كأناشيد خالدة ترددها الألسنة تمجيدا لبطولات طوالبه وإخوانه...

أما الطالبة علا ذ. فتقول:

(أغنياتنا تعكس مشاعرنا كأطفال نشأوا وترعرعوا في مخيم جنين الصامد، إن أناشيدنا لا تنكسر... مثلها تماما مثل أرواحنا!!!...) وتواصل:

(نقول للعالم: إن شعبا ينجب أبطالا وقادة كمحمود طوالبه هو شعب يستعصي على الموت... سنحمل رايته؛ ونواصل دربه؛ حتى نحقق حلمه وأحلام أطفال فلسطين؛ الذين يطاردهم الغول الصهيوني، الذين قتلوا الطفولة المعذبة بدم بارد، والوحيد الذي دافع عنا وثأر لدموعنا ومعاناتنا هم المجاهدون البواسل من أمثال محمود طوالبه).

الأطفال في جنين لا ينسون من أحبهم!!

يقول مراد وهو أحد تلاميذ المرحلة الابتدائية:

(في اليوم الثاني للاجتياح قصفت الطيارة بيت جارنا أبو محمد وولعت فيه النار، وسمعت جارنا وأولاده وهم بيعيطوا ويصرخوا... أبوي ركض علشان يساعدهم بس الطيارة ظلت تقصف وتقصف حتى ولعت النار في بيت جارنا أبو عصام، فقعدت أنا وأمي واخوتي وصرنا ندعي اللّه يساعدهم وينقذهم وفجأة سمعت أبوي بيقول: وين الشباب؟؟ بدي إياهم ييجوا ويساعدونا، وبعد شوي قال أبوي (وكان يطلع من

شباك دارنا) «اللّه أكبر»... محمود طوالبه ومعه خمسة مقاتلين وصلوا).
ويضيف مراد:
(صاحت أمي لما سمعت اسم طوالبه وراحت على الشباك وقالت لهم (ارجعوا يا محمود، الطيارة فوقنا، إحنا فداكم) ولكن محمود قال لأمي وشفته بيضحك: لو جابوا ١٠٠ طيارة مش خايفين منهم، وإحنا فداكم يا خالتي).
ويواصل مراد:
(حبيت (زحفت) على بطني، ووقفت بحد أبوي وأمي، وطلعت من الشباك وشفت محمود طوالبه وأصحابه وهم بيحاولوا يطفوا النار، وبعدين دخلوا دار جارنا وساعدوه وأولاده ونقلوهم، وسمعت أبوي بيقول: اللّه ستر، لو اتأخر محمود شوي ماتوا كلهم، واللّه إنه بطل؛ اللّه يحميه ويخليه للمخيم وفلسطين، علشان هيك أنا بدي (أريد) أصير زي طوالبه لما أكبر).
أما الطالب علاء فيقول:
(يوم الجمعة احتل الجيش مجموعة بيوت في حارة أبو عليون، وهو حي يقع في أعلى المخيم ويمتد مع منطقة الجابريات التي تحصن فيها الجيش الصهيوني، وحاول التسلل للمخيم من خلاله، ونصبوا كماين للشباب، لكن محمود طوالبه والمقاتلين عرفوا بالخبر، واللّه العظيم أنا شفت محمود وعشر شباب مسلحين لما حاصروا الجيش، وصاروا يطخوا عليهم ويضربوا أكواع، وسمعت الشباب بيصيحوا: «اللّه أكبر»... عليهم يا أبطال... والجنود كانوا بيعيطوا ويصرخوا ويسبوا على شارون، حتى أجت طيارة وساعدتهم)...
ويقول الطالب منتصر:
(إن الجنود اختبأوا بين أفراد أسرته بعدما حاصرهم محمود طوالبه ورجال المقاومة ويواصل: (لما كنا نايمين اقتحم الجيش دارنا، أكثر من خمسين جندي نسفوا الباب بالقنابل ودخلوا الدار مثل المجانين، حطوا سلاحهم في روسنا وهم يصيحوا وين الشباب؟ وين السلاح؟ يلا ارفعوا ايديكم؛ والي بيتحرك بطخه)...
ويضيف منتصر:
(أخذوني أنا وأمي وخواتي على المطبخ؛ أما أبوي واخوتي الشباب فربطوهم وحطوهم بغرفة ثانية، ومنعونا نشرب أو نروح على الحمام وضربوا أختي علشان طلبت شربة ماء، وفي الليل بلشت المعركة وسمعنا صوت طخ كثير أمي قالت إلنا: ما تخافوش لأن الشباب عرفوا بأمر الجيش وحضروا لطردهم من منزلنا..
واستمر الطخ والانفجارات، وبعد شوي تفاجأنا بالجنود بيركضوا ويرموا حالهم بيننا، كانوا خايفين ومذعورين وبيكفروا ويسبوا على شارون. ويضيف: في جندي قعد بحدي وهو بيرج (يرتعش) من الخوف فقلت له: «معك سلاح وخايف؟!!» فاطلع

علي بحقد وغضب وألقاني أرضا وقال: «لازم نقتلكم كلكم، بكره لما تكبر بتصير زيهم)!!.

ويؤكد الطالب منتصر:

(أن أصوات الاشتباكات تواصلت لأكثر من خمس ساعات، وأن الجنود عندما كان الشبان يلقون عبوة كان الجنود الصهاينة يصرخون ويبكون، ويلقون أنفسهم على الأرض، وشفتهم وهم يبكوا ويعيطوا)!!!.

أما الطالب ضياء فيقول:

(حشد الاحتلال قوات كبيرة من الجنود والدبابات حول مدرسة وكالة الغوث فيما قامت الطائرات بتغطيتها وقصف المخيم من الجهة الشرقية، ولكن شباب المقاومة اكتشفوا المناورة وقسموا أنفسهم لعدة مجموعات توزعت في كافة المحاور بعدما اتفقت على عدم إطلاق النار على الدبابات وخداعها بعدم وجود مقاومة حتى تصل لمنطقة الأحزمة الناسفة التي زرعها القائد طوالبه، وبالفعل شاهدنا الدبابات تتقدم وسط إطلاق النار حتى قطعت المدرسة، لحظتها شاهدت أبطال المقاومة وهم يفجرون الألغام بها، ثم يحاصرونها بالاكواع، منظر لن أنساه، فقد حوصرت الدبابات، وتسلل الشبان لمسافة قريبة منها، وواصلوا إلقاء الأكواع حتى أصابت دبابتين، اشتعلت النار فيهما وشاهدت الجنود يحاولون فتح الأبواب والهرب لكنهم لم يتمكنوا بسبب قوة النيران التي جوبهوا بها، وشدة المقاومة التي استمرت أربع ساعات، إلى أن تدخلت الطائرات وقصفت المنطقة بشكل عشوائي، ولقد شاهدت الجنود يستدعون طائرة قامت بنقل جنود على الحمالات).

وبعد فشل الجنود في اقتحام المخيم من منطقة الساحة توجهوا للمدخل القريب من مستشفى جنين الحكومي، لكن المقاومة كانت لهم بالمرصاد، وقد قام الشبان والأطفال معا بمهاجمة الدبابات والجنود بمئات الاكواع التي أصابت الدبابات بشكل مباشر، مما أدى إلى اندلاع النيران في بعضها وإعطاب بعضها الآخر...

ويواصل:

(شاهدت الجنود وهم يهربون من المنطقة، وفي حارة الدمج حاول الجنود التسلل إلى حي الحواشين إلا أن رجال المقاومة وأطفال المخيم بقيادة طوالبه كانوا لهم بالمرصاد، حيث اكتشفوهم وحاصروهم بالاكواع والقنابل اليدوية وتمكنوا من إصابة عدد منهم بجروح).

ملاحق

حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين

الجنرال «محمود طوالبة» قائد معركة جنين البطلة

كم هو فخر هذه الأمة جمعاء بمعركة جنين، التي حشرت جيش الاحتلال في زاوية حجمه الطبيعي، الذي حاول أن يضخمه بالأسطورة التي لا تقهر، وأنه صاحب الذراع الطويلة، فمعركة جنين كسرت هذه الذراع، وأذلت كبرياء هذا الجيش، وهي تشكل عنوان المرحلة المقبلة من المواجهة مع هذا العدو، الذي بات مقتنعاً أن المعارك القادمة مع هذا الشعب وهذه الأمة لن تكون إلا على هذه الشاكلة؛ من البسالة والتضحية والصمود...

معركة جنين كشفت عن طبيعة المعدن الذي يشكل هذا الشعب بإيمانه وصلابته، والذي يتفوق على كل المعادن، حتى معدن اليورانيوم لا يمتلك من الطاقة ما يمتلكه هذا الشعب الأبي وخصوصاً إذا ما تفاعل مع إسلامه تفاعل الجنرال محمود طوالبه، الذي شكل أسطورة المقاومة وعنوان التحدي، ومثال الإرادة والفداء في الشعب الفلسطيني.

هذا كله يُستشف من معركة جنين البطلة، حيث حوّل بيته إلى كمين متفجر يصطاد به جنود الاحتلال، ثم يفجره فوق رؤوسهم ويوقع بهم العديد من القتلى والجرحى، هذا الجنرال «كما وصفته الصحف الأوربية»، الذي قاد عملية نصب الكمائن لجنود الاحتلال؛ فيجندلهم ما بين قتلى ومصابين ليرتفع صراخهم من الذعر والرعب والألم؛ ليعلو على هدير طائراتهم وضجيج دباباتهم، هذا النموذج الاستشهادي الذي أفْرَغ من جلادته وصبره على كل المخيم ألواناً من الصبر والتحدي، والذي أفشل كل محاولات الاحتلال الهادفة إلى تفريغ المخيم من قاطنيه ليسهل عليهم فيما بعد تدميره فوق رؤوس المقاومين، فإذا بالمخيم كله: حجارته.. مجاهديه.. منازله وساكنيها من الشيوخ والنساء والأطفال يتحولون إلى جنود مرابطين مقاومين يأتمرون بتوجيهات القائد محمود طوالبه ليسطر أروع المعارك ، ويكتب أجمل صفحات تاريخ هذا الشعب، ملحمة البطولة والانتصار، التي دفعت قادة جيش الاحتلال ومحلليه السياسيين للاعتراف بأن ملحمة جنين كانت ملحمة حركة الجهاد الإسلامي، ملحمة القائد محمود طوالبه.

أيها القائد: «صدقت اللّه فصدقك اللّه؛ ونحن على ذلك من الشاهدين» ألم تقل ذلك لأمينك العام يا محمود؟ حينما خاطبك بأن «الحرب كرٌ وفرٌ»، فقلت له «إن الملتقى في الجنة بإذن اللّه»... وها أنت ترتقي إلى الجنان شهيداً فذاً ، لا تعرف للانكسار طريقاً، وتضع كل ألوية الجيوش العربية تحت ثقل أرطال النحاس والنياشين التي

يصغرون تحتها وينوء بهم حملها، تضعهم في حجمهم القميء، فيما أنت تتطاول فوق الرؤوس والتيجان لترتقي مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.
يا محمود نحن لا نرثيك ولكن نبكيك كبكاء النبي صلى اللّه عليه وسلم لحمزة رضي اللّه عنه في معركة أحد ونقول : على مثل محمود فلتبكِ البواكي... ولكن يا محمود إن أمهاتنا لا زلن قادرات على إنجاب القادة أمثالك
يا محمود. إن دمك يتوزع على دماء الأباء والأمهات لينجبن من أمثالك وأمثال إخوانك المجاهدين.
فسلام عليك يا محمود في الخالدين... سلام على المجاهدين في جنين ومخيمها، وفي نابلس وقلعتها، وفي بيت لحم وكنيستها، وفي الخليل وحرمها... سلام على هذا الشعب الذي كشف هشاشة هذا الاحتلال وأكد حقيقة هذه الدولة العبرية السائرة نحو الزوال.
يا شعبنا الأبي.. هذا هو أنت... هذا هو محمود... هذه هي معركة جنين... هذه هي حركة الجهاد الإسلامي وحماس وكتائب شهداء الأقصى وكل المقاومين الأبطال... هذا هو طريق الانتصار وطريق كسر قيود الذل والعار.
حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين
٢٧/محرم /١٤٢٣ الموافق ١٠/٤/٢٠٠٢م

سرايا القدس
تزف شهيدها القائد «محمود طوالبه»
قائد معركة الدفاع عن مخيم جنين
وتعاهده السير على دربه حتى رحيل آخر جندي عن أرضنا

أكدت «سرايا القدس»، الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، نبأ استشهاد أحد قادتها العسكريين البارزين محمود أحمد طوالبه خلال معركة مخيم جنين، وذلك بعد أن قامت الطائرات والدبابات الصهيونية بقصف المكان الذي كان فيه مع عدد من رجال المقاومة.

وقالت السرايا في بيان لها: «تزف (سرايا القدس)، الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، وتؤكد لجماهير شعبنا وأمتنا نبأ استشهاد القائد والمجاهد الشهيد محمود أحمد محمود طوالبه (النورسي) القائد في «سرايا القدس» الذي زرع الرعب في قلوب الصهاينة بالعمليات الاستشهادية، وقاد وإخوانه المقاتلون الأبطال ملحمة الفداء والبطولة الأسطورية في معركة الدفاع عن مخيم جنين البطل في وجه العدوان الصهيوني الهمجي».

وأضاف البيان: «بعد مقاومة عنيفة وضارية من المجاهدين لعدة أيام، استطاع العدو تشخيص المكان الذي كان فيه القائد الفارس محمود طوالبه، عقب الكمين البطولي الذي نفذه المجاهدون الأبطال ضد جنود الاحتلال، وقُتل فيه على الفور ثلاثة عشر جندياً صهيونياً وأصيب سبعة آخرون، وقد ارتفع عدد القتلى لاحقاً إلى خمسة عشر جندياً باعتراف العدو، بعد هذه العملية البطولية النوعية والجريئة صب العدو جحيم ناره بصواريخ «أباتشي» ومدافع الدبابات على المكان الذي كان فيه القائد محمود طوالبه مع عشرات المجاهدين، مما أسفر عن استشهاده مع العديد من إخوانه الأبطال».

وتابع البيان: «إننا نقول لوزير حرب العدو (بنيامين بن إليعازر)، الذي أعلن متبجحاً أن من بين ٤٨ جثماناً تم تشخيصها في المخيم هناك ٤٥ جثماناً لمقاتلين من «سرايا القدس» في حركة الجهاد الإسلامي.. نقول لهذا المجرم القاتل ورئيسه السفاح رئيس الوزراء الصهيوني آرئيل شارون: لا تفرحوا.. واسمعوا رسالة محمود طوالبه لكم:

أيها القاتل المجنون صبرك، دمي المسفوح في أرض المخيم يحفر فوق الصخر ميلادي وقبرك..».

وأكدت «سرايا القدس» أنها «لن تنكسر ولن تنحني أمام العاصفة الصهيونية الأمريكية الحاقدة، ولن تتراجع عن طريق الجهاد والاستشهاد، وستواصل عملياتها

في قلب العمق الصهيوني بإذن الله، وما عملية حيفا الاستشهادية التي اخترق بها الشهيد البطل راغب جرادات «السور الواقي» للعدو في أوج معركة المخيم، إلا دليل على قدرة مجاهدينا الأبطال وعلى فشل حرب شارون الخاسرة في تحقيق الأمن الصهيوني».

وختم البيان بالقول: «إننا في «سرايا القدس» نعاهد الشهيد القائد محمود طوالبه أن نواصل دربه، وأن نحمل دمه ودم كل الشهداء أمانة في رقابنا، وأن يظل سيفه مُشرعاً نضرب به رقاب المحتلين في كل بقعة من فلسطين حتى رحيل آخر صهيوني عن أرضنا لترتفع رايات النصر والكرامة خفّاقة فوق المسجد الأقصى وكنيسة المهد بإذن الله».

بلدية بيرزيت
تستقبل المهنئين بإستشهاد القائد محمود طوالبة

ما إن تناهى خبر استشهاد الشهيد القائد محمود طوالبه قائد سرايا القدس في مخيم جنين قامت مجموعات من حركة الجهاد الإسلامي بزف خبر استشهاد سيف السرايا طوالبه؛ وذلك عبر مكبرات الصوت في مساجد بيرزيت والجلزون، مؤكدة أنها ستبقى على ذات الطريق التي اختطها محمود طوالبه ورفاقه المجاهدون بدمائهم طريق الجهاد والاستشهاد.

وأعلنت حركة الجهاد الإسلامي عن فتح باب التهاني باستشهاد القائد سيف السرايا وذلك في بلدية مدينة بير زيت. وما إن أعلنت عن ذلك حتى تقاطر المئات من أهالي مدينة بير زيت والقرى المجاورة لها مهنئين باستشهاد محمود طوالبه ورفاقه في مخيم جنين... معتزين بصمودهم الأسطوري في مخيم الاستشهاديين وزينت قاعة بلدية بير زيت بصور سيف السرايا محمود طوالبه.

يذكر إن بلدة بير زيت تعرضت بعد ساعات من انتهاء استقبال المهنئين لاقتحامات ومداهمات طالت سكنات طلابية، إذ علم اعتقال أحد مؤيدي الجماعة الإسلامية وتدمير شقة سكنية لناشطين في المجال الطلابي للحركة ونهب أجهزة كمبيوتر من منزلهم ولم تسلم كذلك قاعة بلدية بير زيت التي استقبلت فيها حركة الجهاد الإسلامي المهنئين باستشهاد طوالبه، حيث دمرت أبوابها وحطم زجاج نوافذها عن طريق استخدام قوات الاحتلال لعبوات ناسفة لهذا الهدف.

وفي ذات اليوم مساءً قامت جماهير شعبنا الفلسطيني في مدينة غزة بمسيرة حاشدة تحيي أرواح الشهداء وعلى رأسهم القائد محمود طوالبه وترفع شعارات وهتافات الصمود والسير على طريق الشهداء الذين سطروا أشرف ملحمة في تاريخ فلسطين المعاصر.

القائد الشهيد محمود طوالبه
سيف السرايا.. وعاشق الشهادة...

خاض المجاهد محمود طوالبه ومن ورائه شعب المخيم معركة الدفاع عن أرض البطولة والفداء مخيم جنين، في وجه أعتى قوة همجية، واستطاع المقاومون خلال تلك المعركة الصمود والتصدي أمام زحف الغزاة، جنود العدو وآلياته، وتمكنوا من تكبيده خسائر فادحة، أثبت خلالها المجاهدون قدرتهم على الصمود والمقاومة.

وكانت الإذاعة الصهيونية قد ذكرت يوم (٠٢/٤/٩)، أن معارك عنيفة تدور بين «الجيش الإسرائيلي» وحوالي مائة مقاتل فلسطيني مسلح متحصنين في قلب المخيم. وأوضحت الإذاعة أن القائدين للمقاتلين في المخيم هما محمود طوالبه، وعلي صفوري.

وكبد المجاهدون الجيش الصهيوني خسائر فادحة تقدر بأكثر من خمس وعشرين قتيلاً صهيونياً، وعشرات الإصابات الأخرى في مخيم جنين. ويقوم جيش العدو بإعدامات جماعية للمقاومين الذين تنفد ذخائرهم، كما يقوم بهدم المنازل على رؤوس أصحابها، وفي الوقت نفسه تشن طائراته المروحية هجومات صاروخية على المخيم.

وعند الساعة العاشرة من صباح يوم الأربعاء (٠٢/٤/١٠)، استشهد القائد المجاهد محمود طوالبه (٢٨ عاماً)، أحد المطلوبين الأساسيين للكيان الصهيوني، والذي نجا عدة مرات من محاولات لاغتياله. وكان الشهيد القائد قد لغّم منزله في مخيم جنين (٠٢/٤/٦)، وعند اقتحام قوات العدو له، قام بتفجيره مما أوقع عدداً من القتلى والجرحى في صفوفهم.

وكانت مصادر أمنية صهيونية قد أعربت عن قلقها الشديد من تحول مدينة جنين ومخيمها وقراها إلى حاضنة لتفريخ الاستشهاديين الفلسطينيين.

واعتبرت صحيفة معاريف الصهيونية بتاريخ (٢٠٠١/٨/١٥) أن جنين تحولت إلى المكان الأخطر على أمن الكيان الصهيوني بسبب قربها من خط الحدود عن بقية المدن الفلسطينية المحتلة منذ العام ١٩٤٨، ونجاح حركة الجهاد الإسلامي في تحويل المنطقة إلى قاعدة قوية لها.

وأشارت الصحيفة إلى أن الأجهزة الأمنية الصهيونية تعتقد بأن محمود طوالبه (المطلوب رقم واحد للتصفية)، هو مسؤول البنية التحتية للجهاد الإسلامي شمال الضفة الغربية، وتسلم منصبه بعد اغتيال القائد العسكري لسرايا القدس شمال الضفة الغربية إياد حردان.

وأضافت الصحيفة أن الجهاد الإسلامي نجح وبسهولة في تجنيد أعداد كبيرة من الاستشهاديين والناشطين العسكريين في منطقة شمال الضفة الغربية وخاصة

مخيم جنين وبلدة قباطيا اللتين تحولتا إلى معقلين كبيرين للجهاد الإسلامي.
وقد نفذ أكثر من عشرين استشهادياً من مخيم جنين عمليات استشهادية ضد الكيان الصهيوني، كانت الغالبية منهم من سرايا القدس الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي، وقد وصفت صحيفة معاريف الصهيونية (٢٠٠١/٨/١١) منطقة جنين بأنها مدينة من أسمتهم بالانتحاريين. وذلك عقب العملية الاستشهادية التي نفذها الاستشهادي محمود نصر (٢٨ عاماً)، ابن سرايا القدس وذلك في كريات موتسكين، والتي أسفرت عن مقتل وجرح العديد من الصهاينة.
وفي تصريح لوزير خارجية العدو شيمون بيريز لشبكة CNN الأمريكية (٢٠٠٢/١١/١٣) طالب باعتقال من أسماهم بالإرهابيين في كل من جنين وطولكرم.
أعلن يوم ٢٠٠٢/٤/١٠ عن أشرف عرس شهدته فلسطين حين زفت حركة الجهاد الإسلامي عريسها الأسطورة البطل محمود طوالبة إلى جماهير شعبنا وأمتنا. وعلى الطريق ذاته وفي ذات اليوم تجسدت روح الشهيد وراحت تكسر ما سُمي بالسور الواقي وتخترق عمق هذا العدو المرتجف المرعوب ومن ذات الروح انطلق المجاهد راغب أحمد جرادات ابن سرايا القدس نحو حيفا ليجعل من جسمه قنبلة بشرية وليؤكد للعدو قبل الصديق أن في رحم فلسطين ألف ألف محمود طوالبة. وأن وهم انتصار جنود الاحتلال على مخيم جنين والمقاومة ليس سوى محاولة لخداع النفس.
وفي هذا السياق فقد أصدرت حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين/ سرايا القدس بياناً حول العملية وباعتباره إحدى الوثائق المرتبطة بالرد السريع على ما جرى في جنين فإن الواجب يحتم نقله إلى هذه الصفحات. ليبقى شاهداً على أن روح المقاومة لن تنكسر.

دكتور رمضان عبد اللّه شلح
أمين عام حركة الجهاد الإسلامي لقناة المنار الفضائية:
الشعب الفلسطيني صنع ملحمة عجزت عنها جيوش

أجرت قناة المنار لقاء مع الأمين العام للحركة الدكتور رمضان عبد اللّه شلّح بعد ظهر يوم الأربعاء (٠٢/٤/١٠) هذا نصه:

س: بداية ما هي معلوماتك عن مخيم جنين وكذلك عن استشهاد محمود طوالبه؟

ج: بسم اللّه الرحمن الرحيم نحيي جماهير شعبنا الفلسطيني البطل في مخيم جنين وفي نابلس، هذا الشعب الذي يصنع ملحمة بطولية عجزت عنها الجيوش. في الحقيقة لا نستطيع في هذه الساعة أن نؤكد أو ننفي نبأ استشهاد الأخ القائد محمود طوالبه أحد قادة سرايا القدس. هناك أقوال متضاربة والاتصال مقطوع مع المخيم منذ أيام، وربما كان معظم المتحدثين على الفضائيات من جنين، يتحدثون من خارج المخيم، وليس هناك اتصال مباشر لأن المخيم دمر بالكامل فلا هواتف، ولا كهرباء، ولا اتصال، ولا مياه، ولا أي شيء، ولكن حتى لو تأكد نبأ استشهاد الأخ محمود طوالبه اليوم، فنحن لا نستغرب، ولا نستبعد، لأن كل المقاتلين وكل المجاهدين قرروا الاستشهاد، والمجاهد محمود طوالبه كان منذ اليومِ الأول الذي التحق فيه بحركة الجهاد وسرايا القدس كان مشروع شهادة، وكان دائماً يتحدث عن الشهادة ـ والحمد اللّه ـ إذا استشهد هو وإخوانه بهذه الطريقة فقد اختاروا القتال حتى الشهادة، وقفوا بشرف، صمدوا بشرف، قاتلوا بشرف، رسموا للأمة صفحة لفجر جديد، ولانتصار جديد لم يحلم به أحد. مخيم جنين اليوم يقاتل لليوم الثامن بينما جيوش الخامس من حزيران ٦٧ لم تستطع أن تصمد أكثر من ستة أيام، وسقطت كامل أرض فلسطين وأكثر من أربعة أضعافها أمام هذا الجيش الذي لا يقهر؛ والذي صمد ثمانية أيام في مواجهته مخيم جنين البطل.

نحن نقول لهذا المخيم البطل الأشم في هذه الساعة، كل شرايين الحكام والجنرالات الركّع لا تصلح أربطة لحذائك يا مخيم جنين، لا تصلح أربطة لحذائك يا محمود طوالبه. هذا المخيم اليوم يتعرض لدمار وحصار ومذبحة نازية جديدة، الكيان الصهيوني كله يقف خلف شارون والصمت العربي مشارك في هذه المذبحة، العواصم التي تستقبل المبعوث الأمريكي كولن باول تتحمل قسطاً كبيراً من دم شهداء مخيم جنين اليوم.

س: كيف تقرأ الصمود البطولي الذي خاضه المقاومون، بالنظر إلى فارق العدة والعتاد؟!.

ج: إن الصمود الفلسطيني مرجعه هي روح الشهادة التي سكنت هذا الشعب. وهؤلاء المقاتلين الأشاوس دخلوا المعركة على قاعدة القتال حتى الشهادة بإذن اللّه، والنصر مهمة كبيرة تكملها الأجيال، وقادمة بإذن اللّه، لكن الذي قيل له منذ اليوم الأول هذه معركة كر وفر، هذه ليست آخر جولة. المقاتلون في المخيم قالوا لنا هذه معركة كر بلا فر، وسنقاتل حتى آخر قطرة دم وحتى آخر رصاصة، وقد فعلوا. العدو الصهيوني قد يعتقد اليوم أنه يصنع لنا ماسادّا فلسطينية (أي أننا اخترنا الانتحار) نقول لهم: أنتم مخطئون نحن لا نصنع ماسادا فلسطينية، هذه كربلاء فلسطين التي تعجّل بالماسادا اليهودية الثانية إذا صحت أسطورة الماسادا الأولى، حتى يزول هذا الكيان من الوجود. الانتفاضة ستستمر، والمقاومة ستستمر وإذا كان العدو يحلم بأن قتل مئات المقاتلين سينهي هذه المقاومة، وينعم بالأمن فهو واهم وما فعلته المقاومة اليوم في حيفا فيه درس كبير لشارون وبوش ولكل من يشد على أيديهم... اليوم مخيم جنين لا يباد، اليوم مخيم جنين يولد من جديد، محمود طوالبه إذا استشهد اليوم يكتب تاريخ ميلاده في حركة الجهاد وفي الشعب الفلسطيني وفي الأمة كلها.

في مقابلة مع إحدى القنوات الفضائية
طوالبه: على الصهاينة الرحيل

في مقابلة مع إحدى القنوات الفضائية (٢٠٠٢/٢/١٧) قال الشهيد القائد «أن ما يقوم به العدو من اعتقالات واغتيالات وجرائم ضد ناشطين ومجاهدين فلسطينيين لن يؤدي إلى وقف جهاد الشعب الفلسطيني».
وقال أيضاً لوسيلة إعلامية أخرى: «إن عمليات الاغتيالات لن تردعني، ولن تردع الجهاد الإسلامي، ولا كتائب شهداء الأقصى، ولا الشعب الفلسطيني كله. بل سنواصل نضالنا، وأقسم بالانتقام لدماء رفاقي».
محمود طوالبه أيها الشهيد القائد، يا رمح السرايا المغروس في قلب العدو، قسماً أن الجهاد ماضٍ حتى زوال الكيان الصهيوني من الوجود.
٢٠٠٢/٤/١٠

بن اليعازر لصحيفة هآرتس الصهيونية:
وجدنا ٤٨ جثة لمقاتلين فلسطينيين، ٤٥ منهم ينتمون للجهاد الإسلامي...

نقلت صحيفة هآرتس الصهيونية تصريحاً عن وزير حرب الكيان الصهيوني قال فيه إن قواته وجدت ٤٨ جثة لمقاتلين فلسطينيين في مخيم جنين، بينهم ٤٥ مقاتلاً ينتمون إلى حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين..
٢٠٠٢/٠٤/١٩

آخر كلام

ستبقى جنين ... ويبقى المخيم...
ستبقى البلاد لنا وحدنا...
ستبقى الأيادي الرقيقة
ستبقى ضفائر طفلة صغيرة
تشير إلى زمن سوف يأتي
ترفرف فيه راياتنا
ويفرح طفل وطفلة
زمان ستأمن أم على طفلها
ويصبح فيه الشهيد كذكرى
للذي حمل الأرض على كتفيه!!
وحمل الحلم على راحتيه
سيأتي زمان تكون لنا فيه السيادة
على الضفتين
على ثالث الحرمين
على اللد والرملة
ستكون السيادة
فلسطين أنت حياتنا والأمل
فلسطين أنت طريق الريادة

حقوق النشر على شبكة الانترنت محفوظة لدى
شبكة حوار بوابة الأقصى
www.alaqsagate.org